MEDIA

إعلام يخرق الصمت

حرب الرصاص المسكوب على غزة

نجلاء أبو جهجه

إعلام يخرق الصمت

ON OFF

A
302.23
I272i

A
302.23
I272i

إعلام يخرق الصمت

حرب الرصاص المسكوب على غزة

إعداد

نجلاء أبو جهجه

L A U - Riyad Nassar Library
27 OCT 2009
RECEIVED

ON OFF

Antoine 166239

الطبعة الأولى 2010 م
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف/ المعد

إعداد ونشر

ON OFF مركز الدراسات و الترجمة– إشراف عبدالحليم حمود.
هاتف: 477970 1 961+ بيروت ـ لبنان

توزيع

دار المؤلف Dar Al-Moualef للنشر والطباعة والتوزيع ش م م for Publishing, Printing and Distribution s.a.r.l.
هاتف: 823720 1 961+ فاكس: 825815 1 961+
ص.ب: 13/5687 بيروت ـ لبنان

الكتاب

لم تسمح إسرائيل بدخول الإعلام الغربي غزة لحظة القيام بعمليتها العسكرية. بعض العمليات العسكرية ينبغي أن يبقى سراً، على الأقل لحظة الإعداد له والقيام به. الذي يرشق بحممه من بعيد لا يسعه أن يرى الموت ويسمع أنين الجرحى، حتى على الشاشة الصغيرة.

المهم أن يغيب الشهود لحظة ارتكاب المجازر ويبقى الضحايا وحيدين وغرباء حتى عن موتهم. لكن، وللأسف، حتى لو سمحت الدولة العبرية بدخول الصحافيين فإن بعض وسائل الإعلام في الغرب ما كانت لتغير في نهجها المعهود، وفي ترداد قولها إن حرب إسرائيل ليست إلا حرباً دفاعية، وإن الحرب ما كانت بهذه الضراوة لولا صواريخ القسام!

ماذا كان يمكن أن تفعل الدولة العبرية إذاً لو كان لحماس جيش مثل جيشها، مزود بطائرات ودبابات وناقلات جنود؟ وهي كذلك، للأسف، في ذهن بعض الإعلاميين الغربيين. صحفية «لوموند» الفرنسية الرصينة تختار عناوينها العريضة بعناية فائقة ومنها: «في أنقاض غزة، بعد الحرب بين إسرائيل وحماس». ونقرأ في صفحتها المخصصة للسجال

المفتوح العنوان التالي: «وراء الوقوف إلى جانب الضحايا والمطالبة بالعدالة، ألا تخفي ردود الفعل بالنسبة إلى إسرائيل الحقد القديم في معاداة السامية؟» . . .

بعض الوسائل الإعلامية عمدت إلى نشر تحقيقات مصوّرة عن المحرقة الهيودية بينما كان يرتفع عدد القتلى الفلسطينيين. وبعض قنوات التلفزة الفرنسية أحرجتها تغطية الموضوع. وكانت، لفرط «موضوعيتها»، تضع صواريخ حماس وصواريخ إسرائيل في منزلة واحدة، وتتحدث عن معاناة الطرفين معاً. وكان يبدو أحياناً، من طريقة الصياغة «المتقنة»، أن الأعداد الكبيرة للموتى والجرحى تتوزّع بصورة عادلة بين المتنازعين. أحياناً أخرى، كانت تبدأ نشراتها الإخبارية بخبر عن قصف المستوطنات حتى يتسنى لها الحديث لاحقاً عن قصف غزة، وحتى تتبدى للمشاهدين العلاقة العضوية بين هذه وتلك، ولإظهار أن إسرائيل إنما تدافع عن نفسها لأنها مهددة، أي أنها مضطرة اضطراراً إلى القيام بالمجزرة، وهذا ما يعبر عنه باستمرار بعض القادة وكذلك بعض المثقفين الإسرائيليين وفي مقدمتهم ضمير المأساة اليهودية إيلي فايزل الذي كان بكى وهو يدافع عن ضرورة الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982.

أما قناة الجزيرة فجاءت، في غياب الإعلام الغربي، لتسد ثغرة كبيرة ولتقول للجميع انظروا إلى ما يحدث هناك، في تلك البقعة المنكوبة. لكن مشكلة الجزيرة في تصويرها للمجازر تتمثل في الطريقة التي كانت فيها الكاميرا تتوقف عند الجروح وتحاول أحياناً الاقتراب منها بل حتى

الالتصاق بها. شيء أشبه بالتلصص الذي يستحيل معه الجرح النازف مادة للاستعراض. كانت الصورة هنا، لاقترابها إلى هذا الحد من الجرح، كأنها تريد الذهاب أبعد في أعماقه والكشف عن المستور منه، حتى ليتساءل المشاهد: هل هناك جرح آخر، باطن، يختبىء وراء الجرح الظاهر؟

سعينا في هذا الكتاب لإعطاء أوسع صورة عن الحرب على غزة (2008 ـ 2009) من شتى النواحي الإعلامية الميدانية، والتحليلية، وأساليب الدعاية والتضليل والتعتيم والمنع.

إعلام
يتحدّى التعتيم

جرائم حرب... بلا شهود

منذ أقدمت إسرائيل على إغلاق المعابر في تشرين الثاني 2008، ومنع الصحافيين من الوصول إلى ميدان العمليات العسكرية في 27 كانون الأول، بات جل وسائل الإعلام خارج لعبة الموت والتقتيل الجارية داخل غزة.

إحباط شامل وعميق يغرق وضع حرية الصحافة في المنطقة. الصحافيون الأجانب يقفون على الحدود، خارج الحدث، أو في أحسن الأحوال على هامشه، والذين في الداخل يقفون على حدود موت مباغت، بات شبه محقق في الفترة الأخيرة، بعد سقوط قتلى وجرحى في صفوف المراسلين الميدانيين، واستهداف مؤسسات إعلامية أجنبية ومحلية بالصواريخ والقنابل. إنه عدوان يجري في الخفاء تقريباً، ويسعى إلى أن يستمر في الظلام من دون شهود.

فوق تل قريب من بلدة سديروت، يشرف مئات الصحافيين والمصورين على منظر مفتوح على بعد 600 متر من غزة، يحاولون التقاط الدخان المتصاعد وألسنة اللهب وأصوات الانفجار وأزيز الطائرات العسكرية. «عندما تكون على هذه المسافة من البعد، تشعر

بالضياع، وبأنك فقدت جزءاً من التاريخ»، تقول مونيكي جونكر، صحافية تلفزيونية إسبانية.

قبل بضعة أيام، شعر اتحاد الصحافيين الأجانب في إسرائيل بنشوة نصر إثر صدور حكم من المحكمة العليا يسمح بدخول عدد محدود من الصحافيين الأجانب إلى غزة، لكن الجيش الإسرائيلي طبق الحكم على هواه، في التوقيت الذي أراده، وعدد الصحافيين والمدة الزمنية التي لا تسمح بإنجاز أي عمل صحافي كما هو متعارف عليه. ثم تلقت وسائل الإعلام الدولية «أقوى حجج» القوات الإسرائيلية تمنع الصحافة من الوصول إلى الخبر في غزة، إثر قصف مجمع إعلامي في حي الشروق، يضم عدداً من وسائل الإعلام العربية والأجنبية (فضائيتا «إم بي سي» و«العربية» و«وكالة رويترز»، قنوات «فوكس» الأمريكية و«سكاي نيوز» البريطانية و«أر تي أل» اللوكسمبورغية).

«لا نستطيع أن ننتج الأخبار كما نريد»، يقول شارل أندرلان، مراسل ومدير مكتب القناة الفرنسية الثانية France 2 في القدس المحتلة لصحيفة «لاكروا» الفرنسية، معبراً عن إحباط شديد جراء منع الصحافيين من التنقل بحرية من وإلى غزة. تعتمد هذه القناة على مراسل فلسطيني واحد في غزة يتحدث العربية فقط ولا يمتلك وسائل المونتاج، وبالتالي «ما يصوره من غزة غير صالح للبث كما هو».

وحيدون في الميدان، تحت النار، ومن دون أدنى حصانة، يعمل الصحافيون الفلسطينيون على نقل الأخبار إلى العالم عبر وسائل الإعلام العربية والدولية، وعددهم 295 مراسلاً بحسب منظمة «صحافيون بلا

حدود» التي تجمع عريضة توقيعات لمطالبة إسرائيل بإفساح المجال للصحافيين لدخول غزة بحرية.

«طاقاتهم استنزفت من العمل في ظروف صعبة جداً وخطيرة، وتحت ضغط وجود عائلاتهم في عين المكان، وضغط التجاذب بين الإخوة الأعداء، فتح وحماس». يشخص باتريك باز، المسؤول عن الصور في الشرق الأوسط في وكالة الصحافة الفرنسية، وضع التغطية الإعلامية من غزة، على الموقع الإلكتروني الفرنسي «20 دقيقة»، موجهاً التحية في الوقت عينه إلى شجاعة الصحافيين الفلسطينيين وكفاءتهم، قبل أن ينتقد مسألة الحياد في عملهم: «هم في النهاية فلسطينيون معنيون مباشرة».

ضربت إسرائيل بعرض الحائط قرار مجلس الأمن الرقم 1738 القاضي بمنع الاعتداء على الصحافيين ومقرات وسائل الإعلام، وتخلت عن استراتيجية إعلامها الحربي التي استخدمتها لإغراء الصحافيين الأجانب حتى حدود الحرب في لبنان صيف 2006.

«رامتان»: محاولة لكسر التعتيم الإسرائيلي حول غزة

مع الأيام العشرة الأولى للحرب الإسرائيلية الوحشية على الشعب الفلسطيني في غزة، احتلت وكالة الأنباء الفلسطينية المصورة «رامتان» واجهة الفضائيات الإخبارية الأخرى، وأخذت «تحقنها» بالصور والأخبار والتغطيات المتلاحقة حتى بدت وكأنها الوحيدة في الساحة المشتعلة. الصورة التي كانت تنقلها عبر الأثير مباشرة عندما كان التيار الكهربائي في رمقه الأخير في القطاع لم تعرف الحياد، وكانت واضحة في رسالتها، فثمة مصورون محترفون كانوا يتنقلون بدراية في أمكنة القصف الجوي الوحشي بمهنية عالية، وقد استفادت الفضائيات من حولها من هذه الحركة، وكأنها فوجئت بهول الضربة للوهلة الأولى، قبل أن تتمكن بدورها من توزيع مراسليها ومصوريها في ساحة الحرب.

الآن انقطع التيار الكهربائي كلياً عن قطاع غزة المحاصر والمقطّع الأوصال، واستقرت الطواقم الإخبارية لمعظم الفضائيات في أمكنتها «المعتادة» وهي تتابع تغطية الأحداث، وتنهمك في إعداد الأخبار العاجلة. الصورة النهارية لم تتغير عند الجميع، لكن المشكلة كانت

تظهر في الصورة الليلية، إذ بدت معتمة ومملوءة بالحبيبات لقلة الضوء الآتي إلى عدسة الكاميرا، إلا من إضاءة قنبلة انشطارية هنا أو هناك.

ظلت «رامتان» قادرة على شحن بطاريات الكاميرا التي يعمل عليها مراسلوها، وإن تراجع اسمها عن شاشات الفضائيات الأخرى، ما أن أظهرت هذه الفضائيات توجهاتها، كل واحدة منها بحسب قربها أو بعدها عن هذه الجهة أو تلك، والأهم هو تركّن مراسليها في أمكنتهم كما أسلفنا، وكان سهلاً معرفة أعداد الشهداء والجرحى الفلسطينيين لسهولة الوصول إلى مصدرها، ولحاجة إعلامية فلسطينية خالصة. ولكن في الجهة المقابلة، كانت الأرقام متضاربة في ما يخص قتلى الجيش الإسرائيلي، وقد تجلى للجميع أن ليس هناك محطة واحدة قادرة على اختراق التعمية الإسرائيلية، وكل ما يدور من حولها ليس إلا تكهنات بالاستناد إلى بعض التمريرات والتلفيقات العسكرية الإسرائيلية.

ربما لهذا وصفت «رامتان» التي تبث على قمري «عربسات ب2» و«يوتيل سات دبليون 6»، من مشاهديها المتحمسين لها بـ «القناة الأسطورية» و«صاحبة الجهد الخرافي» في تعقب الأحداث وتغطيتها وكشف الكثير من الحقائق. وهي تمكنت من القيام بذلك بالاعتماد على شبكة مراسليها ومصوريها الموزعين على القطاع بطريقة احتراقية لم يتنبه إليها، على ما يبدو، الكثير من الفضائيات في الأيام الأولى، وهذا ما أبعدها عن القيام بدورها على أكمل وجه.

ومهما كان من أمر «الاستغناء» عن خدمات «رامتان» لمصلحة الفضائيات الأخرى، فإن الوكالة الفلسطينية برزت في هذه الحرب من

دون شك، وفرضت وجودها الإعلامي كمحطة لا يستهان بحجمها الفعلي على الأرض، وهي ترسخت في أذهان المشاهدين بعد أن تتبعوهُ أيضاً على شاشات من الدرجة الاولى، إذ كانت المحطة الوحيدة التي لا يؤثر «الريمون كونترول» فيها، فالفضائيات الإخبارية تقاسمتها في ما بينها، وتقاسمت أخبارها وصورها وبثها المباشر ولو إلى حين، أي إلى اللحظة التي أمكنها فيها الانفصال عنها لتمارس حريتها الكاملة أو الجزئية في انتقاء الخبر والمعلومة والصورة التي تناسب توجهاتها حتى وهي تسقط مجدداً تحت سطوة المواثبة الإلكترونية التي لا ترحم.

في حرب غزة بدت «رامتان» وكأنها تسعى إلى إرساء قواعد صحافة مستقلة في فلسطين من خلال الاعتماد على شبكة من المصورين والمراسلين المحليين الأكفاء الذين يعرفون طبيعة المجتمع الفلسطيني معرفة جيدة. وعلى رغم ورود بعض الرسائل على موقعها الإلكتروني تحتج فيها على عدم استخدام كلمات مثل «شهيد واستشهاد» فإن القناة ترد بوصف نفسها بأنها وكالة أنباء حرة مستقلة فلسطينية وهي تحاول «متابعة الحدث من دون عبث» أو «رتوش». كما تنوي الاستمرار في هذا الاتجاه وتعميقه في سعي منها لتغيير زاوية الخطاب الإعلامي الفلسطيني الذي بات تقليدياً في نظر القائمين عليها.

«رامتان» في تغطيات سابقة لها أصيب بعض مصوريها في أحداث أقل حدة منذ أن أخذت على عاتقها القيام بالتغطيات الإعلامية انطلاقاً من استوديواتها الموجودة في رام الله وغزة والقدس. وهي كما يرى

بعض المهتمين، ساهمت إلى حدٍّ كبير في كسر التعتيم الذي تفرضه إسرائيل عادة على سير الأحداث. إلا أن سجل «رامتان» لا يخلو من منغصات، فالسلطة الفلسطينية في رام الله تطالبها باستحقاقات مالية تقدر بثلاثة ملايين شيكل إسرائيلي، رأت فيها الوكالة محاولة لكمّ الأفواه وتقييد الحريات، ورفض مديرها المسؤول شهدي الكاشف «دفع قرش واحد حتى تدفع فضائيات أخرى كثيرة ما عليها من التزامات واستحقاقات». وكان هذا الموضوع أدى إلى إغلاق مكاتبها في الأراضي المحتلة، وهذا في رأي الكاشف سببه أن الإعلام الفلسطيني يعاني «أزمة قيادة ونهج ومنهج»، وحمّل المؤسسات الأكاديمية جزءاً من «واقع إعلامي متعثر سببه عدم الاستقلالية».

من «إسرائيل» إلى إيطاليا...
أصوات خرقت الصمت

بعد استهداف الإعلام والتعتيم القسري على ممارسات «تساهال»، صحافيون من إسرائيل وخارجها يدفعون غالياً ثمن القيام بواجبهم: نقل حقيقة ما جرى في غزة.

لم تكتف إسرائيل بمنع الصحافيين من نقل وقائع العدوان على غزة، ثم استهدافهم بالقتل مباشرة كي تتفرّد بتاريخ حربها كما يحلو لها. ولم يشبعها على ما يبدو، انحياز السواد الأعظم من المؤسسات الإعلامية في العالم، إذ حرصت على تبييض صفحتها وخدمة مصالحها وخطابها. فقد آن الأوان كي «تهتم» بإعلامها الداخلي فتراقب وتهدّد وتعاقب.. صحافييها!

«إسرائيل تدفاع عن نفسها، إسرائيل لا تستهدف المدنيين، إسرائيل تقضي على الإرهابيين» هذه هي الرسائل التي أراد الكيان الصهيوني أن «يحفظها» للعالم ولمواطنيه، منذ بدء العدوان، مع التشديد على تغييب الفلسطينيين أحياءً وشهداء. الإسرائيليون كانوا مصممين، مهما بلغ الثمن هذه المرة، على عدم خسارة المعركة.. إعلامياً على الأقل.

كشفت الدولة الغازية عن وجهها جلياً خلال العدوان الأخير على غزة، والأسوأ أن المواطنين الإسرائيليين رحّبوا بذلك بشراسة! ضباط الدعاية الحربية في إسرائيل لم يتداخلوا فقط في مضامين النشرات الإخبارية وتوزيع مساحة الوقت والتعابير المستخدمة والصور المنشورة، بل وصل بهم الأمر إلى مراقبة إيماءات الصحافيين خلال إجراء مقابلاتهم، وحركات الحاجبين لدى المذيعات خلال ظهورهنّ على الشاشة!

وليست يونيت ليفي سوى خير مثال على ذلك. إذ إن المذيعة الإسرائيلية في «القناة الرسمية الثانية» تعرّضت لحملة كبيرة في مؤسساتها وعلى شبكة الإنترنت، واتهمت بـ«التعاطف مع العدو»، و«العداء للسامية»، لأنها قالت على الهواء: «من الصعب أن نقنع العالم بأن هذه الحرب مبرَّرة، وخصوصاً أنّ هناك 350 قتيلاً في فلسطين وقتيلاً إسرائيلياً واحداً». وسرعان ما انطلقت عريضة على الإنترنت تدعو إلى توقيف ليفي عن العمل لأنها أسهمت «في إضعاف الروح الوطنية» كما ذكرت العريضة أن ليفي «رفعت حاجبيها بطريقة ساخرة خلال حديثها عن الجنود الإسرائيليين». وقد بلغ عدد الموقّعين على العريضة نسبة فاقت كل التوقعات: ما لا يقل عن 30 ألف مواطن! إنذار ثانٍ وُجّه إلى الصحافية دانا ويس من القناة الثانية أيضاً، بعدما «بدت على وجهها ملامح الحزن والألم خلال مقابلتها سكان غزة».

بعض «الاختراقات» الإعلامية سجّلت أيضاً في الإعلام الغربي.. على صعيد فردي طبعاً. إذ رفض بعض الصحافيين صرف النظر عن الحقائق السافرة، والانحياز الأعمى لإسرائيل، الإعلامي الإيطالي

ميكيلي سانتورو، خلال برنامجه الشهري على قناة «راي» الوطنية الإيطالية، سلّط الضوء على المجازر التي ترتكبها إسرائيل في غزة، الأمر الذي أثار حفيظة السفير الإسرائيلي في روما، فقدّم احتجاجاً رسمياً إلى المسؤولين الحكوميين ومدير المحطة، مطالباً باتخاذ إجراءات جزائية بحق سانتورو الذي «اتهم» بـ «الوقاحة» و«الانحياز إلى الفلسطينيين».

أصوات نادرة كسرت الإجماع، وخرقت قانون، الصمت الذي حاصر ضحايا المجزرة الإسرائيلية في غزة، وأبحروا عكس التيار الطاغي الذي عبّد الطريق أمام الغزاة «الشرعيين» منذ بداية العدوان إلى اليوم. فحتى صور آلاف الضحايا لم تنجح في إيقاظ إعلام العالم الحرّ من سباته.

يوم إعلامي للتضامن مع غزة

لا شك في أن يوم التضامن الإعلامي مع غزة فكرة جديدة في العالم العربي، إلا أن هذه التجربة لم تخلُ من الأخطاء والملاحظات التي تؤكد أن النيات الحسنة وحدها لا تكفي. الفكرة بعينها جذبت المشاهد العربي، وخصوصاً مع تقاعس وسائل الإعلام الحكومية عن أداء دور حقيقي في تغطية العدوان، فيما كانت القنوات الخاصة تتنافس على عرض البرامج الترفيهية، لذا انتظر المشاهد دعوة اتحاد المنتجين العرب إلى يوم تتحوّل فيه عشرات الشاشات العربية إلى شاشة واحدة تحت شعار «وطن واحد، إعلام واحد». عند الواحدة من بعد الظهر الجمعة (16/ 1/ 2009) بدأ البث الموحّد ليواجَه بمنافسة قوية من وقائع قمة الدوحة الطارئة التي نقلتها شاشات عدة مباشرة تزامناً مع البث الإعلامي الموحّد. وعند الحادية عشرة مساء، انتهى البث وأصدر الإتحاد بياناً أعلن فيه أن 55 قناة عربية شاركت في التضامن على ثلاثة أقمار صناعية، إلا أن هذه الأرقام نفسها تحتمل الكثير من النقد، إذ إن القمر الصناعي الأكثر انتشاراً في العالم العربي أي «نايل سات» شاركت عليه 18 قناة، ثلاث منها فقط تتمتع بشعبية بين المشاهدين العرب وهي «دريم» و«الساعة» و«آفاق» فيما باقي القنوات قليلة الانتشار أو شبه غائبة

عن الساحة الإعلامية مثل قناة «مودرن» المصرية التي تبث مواد مسجَّلة منذ الصيف.

نظرة سريعة إذاً إلى القنوات المشاركة في هذ اليوم تؤكد فقدان الإعلام الخاص أي رغبة في دخول متاهات الأزمات السياسية، فكل القنوات الخليجية واللبنانية لم تشارك ولو بساعة واحدة من ساعات البث العشر، في الوقت عينه، كان واضحاً أن قنوات مصرية مثل «المحور» و«الحياة» أرادت تفادي أي انتقاد ضدها فتضامنت لساعات محدودة قبل أن تعود إلى بثها اليومي المعتاد. هكذا، أصبحت «دريم» القناة الخاصة المصرية الوحيدة التي انتظم بثها طوال اليوم، بل كانت المركز الرئيس للبث من داخل مصر كما «صانعو القرار» من دبي، و«آفاق» من بغداد. من جهة ثانية، شهد يوم التضامن عدداً من الأخطاء الفنية والتقنية بسبب غياب تنظيم محكم للتنقل بين الاستديوهات، فغاب الصوت والصورة تكراراً عن شاشتي «النيل الأزرق» السودانية و«شبابيك» المصرية و«فلسطين». ومن أكثر النجوم حضوراً في يوم التضامن لطيفة وجمال سليمان ونصير شمة ولاعب كرة القدم حسان حسن، فيما كان إبراهيم أبو ذكري رئيس اتحاد المنتجين العرب الوجه الأكثر حضوراً، مؤكداً أن القنوات كلها شاركت دون الحصول على أي مقابل، وأن الرئيس الفلسطيني المنتهية ولايته محمود عباس اتصل به شاكراً «وخصوصاً أن التضامن الإعلامي ابتعد عن أي طائفية سياسية، وركز فقط على إعانة أهل غزة وحشد القنوات العربية للاجتماع لأول مرة من أجل هدف واحد».

وجاء في البيان الصادر عن الاتحاد أنه جرى جمع تبرعات بقيمة نصف مليار دولار إلى جانب سياة إسعاف وتبرعات عينية. حتى إن إحدى السيدات تبرّعت بكليتها لأي مريض غزاوي.

سديروت حائط مبكى «إعلامي»

كيف تعاطى الإعلام الإسرائيلي مع العدوان على غزة؟ قد يبدو السؤال «ساذجاً»، وخصوصاً بالنسبة إلى متابعي الصحف والتلفزيونات الإسرائيلية. باستثناء صحيفة «هآرتس» التي عرضت الحصيلة اليومية لآلة القتل في القطاع، فإنّ المشهد الإعلامي بدا معتماً. هكذا ركّز الإعلام على عرض «معاناة» المستوطنين في «جبهة الجنوب»، مقابل عرض رمزي لمآسي الفلسطينيين اليومية. رمزية مصحوبة دائماً بالبيانات العسكرية الصهيونية وتبريرها لقصف مدرسة أو عائلة.

إذاً، كان التعاطف التام مع المؤسسة السياسية والعسكرية هو سيّد الموقف، فالمتابع للقنوات الإسرائيلية لاحظ تغييب النقد تغييباً شبه كامل، أما الحجة، فهي الإحصائيات التي تقول إن النسبة الأكبر من الجمهور الإسرائيلي داعم للحرب، وإن الجيش يغلق منطقة النزاع ويمنع الصحافيين من الدخول.

الصحف الإسرائيلية ليست أفضل حالاً، «يديعوت أحرونوت» ومنافستها «معاريف»، اتفقتا على تبني الخطاب الرسمي الصهيوني، محرّضتين على الحرب منذ اليوم الأول. «هآرتس» لم تتميز في تغطيتها

الإخبارية عنهما. إذ اجتمعت المنشورات الثلاث على نقل الخبر من دون أي سؤال أو نقد، إلا أن «هآرتس» تميزت بآراء محلليها ومعلقيها «الأقل» تطرفاً وتصلباً في الموقف.

مديرة القناة العاشرة الإسرائيلية، اعترف لصحفية «واشنطن بوست» بأن «الوضع الإنساني في غزة أشبه بالجحيم» قبل أن يستدرك «لكننا لسنا معنيين بذلك، نحن نبث لمواطنينا ولا نعرض الصورة كاملة كأننا نعرض حرباً في تنزانيا: إنها حربنا»، في وقت وجهت فيه ثماني منظمات مدنية محلية رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى مسؤولي الوسائل الإعلامية تطالبهم بالتزام «مسافة من التغطية»، ومنتقدة «غياب النقاش حول مبررات سلوك إسرائيل» حسب وكالة «ناشونال نيوز» الإسرائيلية.

بعيداً عن الإعلام الحكومي والموجّه، حاول مستقلون وشيوعيون ودعاة سلام عرض الوجه الآخر من الحرب، إيلان بابه أحد المؤرخين الجدد المعروفين في إسرائيل والمتطرّف في نقده للصهيونية والمفصول من جامعة حيفا بسبب مواقفه، حاول على موقعه الشخصي عرض حقيقة الخلفيات السياسية للحرب على غزة، وأعاد القطعة التي غيّبها المشهد الإعلامي الإسرائيلي. في وقت عمد ميشال فيه فرشوفسكي رئيس «مركز المعلومات البديلة» في صحيفة «لومانيتي» الفرنسية إلى نقد المجتمع الحربي الإسرائيلي من الداخل، مظهراً رأي المعارضين للحرب المغيّبين عن الشاشة والإعلام، ومُظهراً كيف تقوم الدولة باستغلال سديروت كحائط مبكى في الإعلام اليوم فيما توغل في تهميشها اقتصادياً منذ أربعين سنة.

كل إعلام الدولة العبرية تجنّد في الحرب، لكن السحر سرعان ما انقلب على الساحر

حتى عندما تناثرت أشلاء جثة الطفلة الفلسطينية الغزية في ساحة بيتها، والتهم الكلاب جثة طفلة أخرى لم تتجاوز السادسة من عمرها بعدما قتلها جيش الاحتلال الإسرائيلي بقذائفه المدفعية، لم تتحرك مشاعر الصحافة الإسرائيلية. . . ولم تتحل حتى بالحد الأدنى من الصدقية والمهنية. واختارت في اليوم التالي صور أطفال ومسنين يهود من عسقلان يجلسون داخل الملاجىء في حال رعب لتسطر عناوين تشجع على الحرب وتدفع نحو القضاء على «الإرهاب الفلسطيني» عبر عملية «الرصاص المصبوب» لإعادة الأمن إلى سكان جنوب إسرائيل. لم تجد الصحافة مكاناً حتى في صفحاتها الداخلية، لمجرد ذكر معاناة أطفال غزة ونسائها، ضحايا القصف الجوي الرهيب الذي اعتبره الصحافيون الإسرائيليون عملية لوقف قصف الصواريخ الفلسطينية «الإرهابية».

وخرجت صحيفة «هآرتس» في اليوم التالي للحرب بافتتاحية تقول فيها: «يمكن أن نفهم منطق رد الجيش الإسرائيلي. فلم تكن (القوات)

محتاجة إلى تحميس وسائل الإعلام التي سلكت سلوك المشجعات المتحمسات في مسابقة، ولا لريح الانتخابات التي تضرب ظهور الساسة الباحثين عن العناوين. فمواطنو النقب الغربي الذين عاشوا في خوف كل يوم، والطلاب المذعورون في رياض الأطفال والمدارس، ومساحة الدولة ذات السيادة المخترقة بلا انقطاع هي التي تمنح العملية شرعيتها».

فحتى نهاية الأسبوع الأول من الحرب على غزة، كانت وسائل الإعلام، المكتوبة والمرئية والمسموعة، بمثابة كتائب للجيش وناطقة باسمه. . . تقود حرب دفاع مستميتة عنه لتتحول، خصوصاً الإلكترونية، إلى لائحة دفاع عن الجرائم. وبذريعة الرقابة العسكرية على أخبار العمليات التي تدور في أرض المعركة في غزة استكملت الصحف مهمتها في الدفاع. ولكن في الأسبوع الثاني بدأت تظهر، خصوصاً في الصحف المكتوبة، مقالات انتقادية وعلامات استفهام وتشكيك.

في البداية، لم ترسل الصحافة مراسلين إلى غزة، لأن الجيش معها. فبدأت تجنّد صحافيين من قلب غزة ليرووا ما يجري وتتابع بعض الفضائيات العربية والأجنبية التي تنقل الصور من غزة. وجنباً إلى جنب مع ذلك، تواصل مغازلة الجيش وتوجه الانتقادات المحدودة إلى «الجبهة الداخلية» التي لم تأخذ في حسبانها حال الطوارىء ولم توفر الملاجىء في الشكل اللازم. وملأت صفحاتها معلومات على غرار «هذا الملجأ من دون باب وذاك استخدم كنيساً وثالث غير نظيف

ومهمل»... وغيرها من الانتقادات التي كانت ساذجة وسطحية أمام وقع ما يرتكبه الجيش من جرائم بشعة في حق الفلسطينيين.

وتفننت وسائل الإعلام في مساندة الجيش حتى عندما أجرت استطلاعات رأي فوضعت صيغة السؤال بما يضع المشاركة في وضع يجيب بالإيجاب أو النفي لتأتي النتائج محصورة في إطار الدعم للجيش وللعملية التي يخوضها. وفيما اعتبرت وسائل الإعلام الإسرائيلية وسائل الإعلام العربية والأجنبية مشاركة في «الحملة العالمية اللاسامية ضد اليهود»، واصفة إياها بالمغرضة وغير الصادقة وبأنها تتعامل بعطف مع الفلسطينيين، حرصت على نقل التفاصيل عن «بطولات الجيش» في أرض المعركة عبر صور التقطها الجيش وكتب نصها واختار المقابلات ومضمونها، وفيها «السيطرة على مواقع مطلق الصواريخ، تنفيذ سلاح الجو سبعين غارة في غضون 6 ساعات، مقتل عشرين مقاتلاً في مواجهات عنيفة»...

وهكذا حتى بدأت صور المدنيين الفلسطينيين، خصوصاً الأطفال، ضحايا القنابل الفوسفورية التي تقشعر لها الأبدان، تملأ الشاشات العالمية، ومع دخول أطباء أجانب وعرب إلى غزة ودعوة فريق الأطباء الأردني إلى إحضار فريق أطباء أوروبيين وعالميين وعرب لإعداد تقارير حول المصابين والجثث لتوثيق جرائم الاحتلال... وفقط عندما دب الرعب في قلوب المسؤولين على تنفيذ الجرائم بحق الفلسطينيين من توجيه تهم بارتكاب جرائم حرب ضدهم وتحريك المستشار القضائي للحكومة ميني مزوز المشاورات القضائية من أجل التخفيف قدر الإمكان

من ارتكاب الجرائم التي تعيد القيادة السياسية والعسكرية الإسرائيلية إلى المحاكم الدولية متهمين بجرائم حرب.. وفقط عندما بدت الخلافات بين القيادتين السياسية والعسكرية تتفاقم حول قرار مواصلة العملية ودخولها إلى المرحلة الثالثة والتحذير من خطر السقوط في وحل غزة كما غرقت إسرائيل في وحل حرب لبنان الأولى التي دخلت إليها بأهداف متواضعة وغرقت فيها سنوات طويلة... انتبهت وسائل الإعلام الإسرائيلية إلى أنها لم تمارس مهنة الصحافة النزيهة. بل تعاونت مع مكتب الناطق باسم الجيش الإسرائيلي وأحياناً مع السياسيين المستفيدين من العملية والداعين إلى مواصلتها وتصعيدها.

ولكن عندما بدأت تغير لهجتها وتوجهها كان الشارع الإسرائيلي اقتنع بما زودته بها ورأى أن جيشه في غزة ليس ذلك الجيش الذي خاض حرب تموز (يوليو) 2006، بل إنه انتصر وحقق أهداف العملية. وعلى رغم أن صواريخ «غراد» و«كاتيوشا» و«القسام» لم تتوقف طوال الحرب بل تجاوز مداها 46 كليومتراً، عبّر الإسرائيليون عن موقف يتماشى والسياسة التي اتبعتها وسائل الإعلام وبأكثرية مطلقة وأعلنوا في استطلاعات الرأي دعمهم العملية واعتبارها ناجحة وحققت إنجازاتها.

فقد بعدما تزود الإسرائيليون بوجبات النصر من وسائل الإعلام والسياسيين والعسكريين، استيقظ إعلاميون من سباتهم ونزعوا غطاء الخداع ليخرجوا بمقالات صريحة ضد الحرب إلى حد أربكت مسؤولين سياسيين وعسكريين وبدأت تكشف حقيقة هذه الحرب أبعادها وأسبابها ونتائجها وما سيعقبها من خفايا عن فظاعة جرائمها عند وقف المعارك

Riyad Nassar Library

وتجول وسائل الإعلام في أرض المعركة مكان الجنود الإسرائيليين وآلياتهم المدرعة.

وكان السؤال الأول الذي طرحته صحف «هآرتس» و«يديعوت أحرونوت» و«معاريف»: أين هو النصر إذا كان عدد مقاتلي «حماس» من بين القتلى الفلسطينيين لا يتجاوز ثلثهم. بينما البقية أطفال؟ وكيف يمكن للجيش أن يكون قضى على منصات إطلاق الصواريخ طالما بلدات الجنوب تتعرض للقصف الصاروخي يومياً؟ وبرزت المقالات التي تطالب إسرائيل بالانسحاب من غزة ووقف إطلاق النار.

وصدرت صحيفة «هآرست» بعدما تقرر إرسال رئيس الدائرة الأمنية والسياسية في وزارة الدفاع عاموس جلعاد للمرة الثانية إلى مصر، تحت عنوان «كفى للرصاص». وكتبت الصحيفة تقول: «بعد ثلاثة أسابيع من بدء حملة «رصاص مصبوب» ـ وأسبوع واحد على الأقل متأخر جداً ـ يجب إنهاؤها اليوم».

وتابعت الصحيفة: «القوة العسكرية التي استخدمتها إسرائيل في الأسابيع الثلاثة الأخيرة لا تسمح لها بأن تتجاهل المعاناة الفظيعة التي يمر بها سكان غزة. «الأروقة الإنسانية» (أي المساعدات الإنسانية) لا تكفي. ثلاث أو أربع ساعات «ساعات رأفة» لا يمكنها نقل قوافل أو توزيع الاحتياجات على السكان، الذين يوجدون الآن تحت احتلال مباشر من إسرائيل. لن يلحق أي ضرر بالخطوة الحربية أو بأمن إسرائيل إذا ما فتحت إسرائيل معابر الحدود لعبور متواصل للبضائع والأدوية. سياسة العقوبات الاقتصادية التي فرضتها إسرائيل لم تجد نفعاً ولم تمنع

الحاجة إلى شن الحرب. كما أن التخوف من أن يعزز فتح معابر البضائع صمود «حماس» في الحرب، ليس قائماً. «حماس» تقاتل ضد إسرائيل ليس من أجل لقمة الخبز، وعلى أي حال «انهيار حماس» لم يعد هدفاً معلناً للحرب».

وفي الصحيفة ذاتها توجه الكاتب يوئيل ماركوس بصراحة للثلاثي رئيس الحكومة ايهود أولمرت ووزيري الدفاع ايهود باراك والخارجية تسيبي لفني، وكان أكثر وضوحاً تجاه أولمرت إذ كتب يقول: «يا أولمرت، ابحث لك عن شقة»، مضيفاً: «أولمرت يتطلع إلى محو محلاظات لجنة فينوغراد التي في تقريرها المرحلي وصفته بألوان قاتمة. من الصعب التحرر من الانطباع بأن خطواته الآن تتركز في ذاته. فهو يدير حملة شخصية ضد تسيبي لفني ويفعل كل شيء كي لا تصل إلى رئاسة الوزراء، بسبب «عدم تجربتها». وهو ينسى حقيقة أن ليس تسيبورا (تسيبي لفني) فقط بل هو نفسه وصل إلى رئاسة الوزراء بالصدفة، فقط لأنه كان يحمل لقب «القائم بالأعمال».

وفي «معاريف» كتب عوفر شيلح بصراحة أن عملية الجيش في غزة تعبر عن رده على حرب لبنان ورغبة الجميع من قياديين سياسيين وعسكريين وحتى الجمهور في التخلص من صدمة حرب لبنان. وتابع: «في الجيش الذي يداوم على القتال، تعبّر طرق عمله عما يعد ناجحاً أو فاشلاً في المرحلة السابقة. إن خطط «الرصاص المصبوب» تعبر عن رد الجيش على حرب لبنان الثانية، كما نبعت إخفاقات تلك الحرب حقاً من استنساخ العقلية، وطرائق العمليات والتصور العام للقتال في

المناطق إلى جبهة أخرى وإزاء عدو مختلف في جنوب لبنان». ويختتم الكاتب مقاله بلفت الانتباه إلى أن «من يتابع الشبكات الأجنبية فقط أو يسافر إلى الخارج لبضعة أيام، يستوعب قوة الصور من غزة، ومعنى التقارير عن نصف مليون، إنسان بلا ماء، وأكثر من ألف قتيل لم يدفن أكثرهم ومقبرة قصفها سلاح الجو وجهاز طبي منهار. سيدفع الإسرائيليون ثمن هذه الأضرار بصورتهم زمناً طويلاً. لكن في إسرائيل وبالنسبة إلى ايهود باراك والجيش فبعد لبنان لم يعد هذا تقديراً».

أما الكاتب آري شافيت فوصل إلى أبعد من ذلك بصراحته وكتب يقول: «إسرائيل ليست روسيا وغزة ليست الشيشان. وحتى تجاه أعدائها الألداء لا يمكن لإسرائيل أن تتصرف كما تتصرف قوة عظمى تجاه أعدائها. حروبها يجب أن تكون محقة ومتوازنة. ومن دون صلة بالحرب، لا يمكن لإسرائيل أن تنتصر في ميدان المعركة. من دون أساس أخلاقي متين، كل نصر إسرائيلي هو نصر مرتد على أعقابه. فالنار ستتوقف وسيتبدد الضباب وستنكشف الفظاعة وينغمر العالم بصور الدمار والقتل التي تقشعر لها الأبدان. عندها فقط سندرك أن رقصة فالس بيروت مع بشير ستشحب أمام رقصة فالس غزة مع أولمرت. وعندها سيتبين لنا أن ثمن مغامرة القوة سندفعه ليس فقط في أمريكا أوباما بل في النفوس المصابة عندنا».

غزة على الشاشات الأوروبية

في أحد التقارير التلفزيونية الإخبارية والتي عرضتها قناة «كتفاس» البلجيكية من مدينة غزة خلال الحرب الإسرائيلية، يظهر الأب الفلسطيني وهو يقوم بتوزيع أطفاله الستة على زوايا بيته الواقع في أحد مخيمات اللاجئين في المدينة. ترافق كاميرا التلفزيون الأب في هذا التقرير، وهو يحمل كل طفل ببطء، ومن دون حوارات مع الكاميرا، إلى جهة مختلفة حيث يغطيه بأغطية كثيفة. وعندما يتكلم الأب، يفسر خطوته، بأنها رغبة، في تفريق الأطفال عن بعضهم حتى لا يقتلوا جميعهم في انفجار واحد، وكما حدث مرات عديدة في الحرب الإسرائيلة الأخيرة على منظمة حماس في مدينة غزة.

والأطفال الفلسطينيون هم أبطال تقرير تلفزيوني آخر، هولندي هذه المرة: فالمراسل الهولندي والذي لم ينجح في الوصول إلى غزة، وقد أغلقتها السلطات الإسرائيلية بوجه المراسلين الأجانب، توجه إلى المناطق الحدودية مع غزة في مصر، وذهب إلى أحد المستشفيات المصرية التي استقبلت مئات الجرحى الفلسطينيين.

في التقرير الهولندي يتابع المراسل لأيام، يوميات علاج مجموعة

Riyad Nassar Library

من الأطفال والجرحى، ويتحدث إلى من يستطيع الكلام، ويراقب من خلال زجاج غرف الإنعاش بعض الحالات الحرجة، يخبرنا الأطباء المصريون أن فرصهم في النجاة ضعيفة كثيراً. وتروي أمهات بعض الأطفال عن الانفجارات التي وقعت. إحدى الأمهات وصفت كيف قتل انفجار أخاها وابنتها، وجرح ابنها الذي ترافقه إلى المستشفى الآن. وليخبرنا المراسل الهولندي في نهاية التقرير أن هذا الابن توفي في المستشفى بعد أيام من وصوله.

على هذا النحو ركز العديد من التغطيات التلفزيونية الهولندية، البلجيكية، والبريطانية، على الحالات الإنسانية في هذه الحرب، فاهتمت بعرض الكثير من التقارير عن الضحايا من الأطفال الفلسطينيين، والذين تحولوا بعد مجموعة من الصور التي غزت الصفحات الأولى من الصحف العالمية، إلى أحد علامات هذه الحرب، حتى عندما انطلقت المظاهرات ضد الحرب في العديد من العواصم الأوروبية قبل أيام، حمل الكثير من المتظاهرين صور الأطفال الفلسطينيين الضحايا، وتحدثوا عن بشاعة الحرب التي شاهدوها على تلفزيوناتهم.

الأمر اللافت في التغطية التلفزيونية الأوروبية لهذه الحرب، هو قلة الحوارات السياسية بين المختصين، بالمقارنة بالتقارير الإنسانية عن الضحايا أو الأحياء الذين يعيشون في ظروف بالغة الصعوبة، وحتى الحوارات التي تظهر كجزء من البرامج السياسية المعروفة مثل برنامج «نوفا» الهولندي، و«أخبار الليل» للبي بي سي الثانية، ركزت كثيراً على

عدد الضحايا من المدنيين، وهمجية الحرب بالمطلق، فقلّت كثيراً وجهات النظر المدافعة عن إسرائيل، على رغم أن الكثيرين من المختصين في شؤون المنطقة العربية من الأوروبيين، أكد أن منظمة «حماس» تتحمل الكثير من المسؤولية على هذا التصعيد، لكنها رأت أن الرد الإسرائيلي الشديد العنف غير مبرر على الإطلاق، ولن يساعد في بناء أي قاعدة للحوار أو السلام في المنطقة.

ولأن مدينة غزة قبل هذه الحرب، لم تكن مكاناً آمناً تماماً للكثير من مراسلي التلفزيونات الغربية، خصوصاً بعد خطف أحد مراسلي قناة البي بي سي البريطانية، الذي استمر لأسابيع، قبل عام ونصف، لم يكن في المدينة وقت حدوث الهجوم الإسرائيلي، إلا مجموعة صغيرة من مراسلي بعض القنوات التلفزيونية الأوروبية، وهم الذين قدموا ومن داخل المدينة تحقيقات مصورة خلال الحرب. وعندما بدأ الهجوم الإسرائيلي، أرسلت محطات كثيرة فرقاً تلفزيونية خاصة للتغطية، لكنها اصطدمت برفض السلطات الإسرائيلية دخول المدينة. ليرسلوا أخبارهم من على حدود غزة، في تقارير يومية أصبحت مضجرة كثيراً بسبب بعدها عن أماكن الأحداث وتكرار الخلفية نفسها خلف المراسل التلفزيوني.

مقابل هذا وبسبب حرصها على عدم الانحياز لطرف من النزاع، تقدم المحطات التلفزيونية الأوروبية وبصورة دورية، تقارير من داخل المستوطنات الإسرائيلية والتي تتعرض أحياناً للصواريخ التي تطلقها حركة حماس. هذه التقارير التي تقدم مشاهد لرعب المدنيين وأحياناً

بعض الإصابات، لا تستغرق طويلاً من وقت التغطية التلفزيونية لحرب إسرائيل على غزة، والتي تهيمن عليها مشاهد الدمار الذي لحق بالمدينة، والضحايا الفلسطينيين.

انحياز الـ «بي بي سي»

لم تتراجع هيئة الإذاعة البريطانية «بي بي سي» عن قرار عدم بث نداء لجمع التبرعات من أجل مواطني غزة، برغم تلقيها ضغوطاً متزايدة من جهات سياسية ومدنية ودينية، تبلورت أكثر مع تظاهرات جمعت حوالي 2000 معترض على القرار.

«بي بي سي» تصر على لسان مديرها العام مارك طومسون أن حياديتها ونزاهتها «يمكن أن يتعرضا للخطر»، تحت عنون عريض مفاده «إذا فقدنا ثقة المستمعين من خلال ظهورنا وكأننا نؤيد طرفاً ما على حساب طرف آخر، فسنكون قد فقدنا فائدتنا بالنسبة للجمعيات الخيرية نفسها وللآخرين جميعهم».

علماً أن النقطة الأساسية التي تبني «بي بي سي» موقفها عليها، تتعلق بمسألة وصول المعونات إلى غزة، الذي تقول «بي بي سي» إنه «محظور في جميع الأحوال»، في حين يرد ناشطون بأن هذا الأمر غير صحيح مع تمكن الإمدادات والعمال من الوصول إلى هناك.

وفميا تبنّت قناة «سكاي» نهج «بي بي سي» ذاته، عدلت بعض قنوات منافسة مثل «آي تي في» و«تشانيل 4» و«تشانيل 5» عن مواقفها

Riyad Nassar Library

وقررت بث النداء الذي أصدرته لجنة طوارىء الكوارث بالتضامن مع منظمات خيرية كبيرة من بينها «أوكسفام» و«الصليب الأحمر البريطاني» و«أنقذوا الأطفال» وغيرها.

عقب انتشار خبر قرار «بي بي سي»، شهدت ساحة بورتلاند حيث مبنى «بي بي سي» تظاهرة كبيرة، هتف خلالها المئات بعبارات مثل «العار على بي بي سي» و«حرروا فلسطين».

وكان اللافت توجيه وزير التنمية الدولية دوغلاس ألكسندر رسالة إلى شبكات التلفزيون الرئيسية، يطلب منها بث النداء لجمع أموال من أجل إرسال أدوية ومواد غذائية لسكان غزة. منتقداً حجج «بي بي سي» بالقول «أعتقد أن في وسع الجمهور البريطاني التمييز ما بين دعم المساعدة الإنسانية والانحياز في النزاع». لكن رد «بي بي سي» بقي على حاله، إذ عاد طومسون ليشدد على موقف هيئته، وقال رداً على الوزير «بعد التشاور مع رؤساء التحرير، خلصنا إلى أن بث النداء، بأي شكل كان، قد يسيء إلى ثقة الجمهور في حياد المؤسسة في تغطيتها الإجمالية للأحداث».

كما برز موقف أسقف يورك جون سينتامو، وهو الرجل الثاني في الكنيسة الإنجليكانية الإنجليزية، الذي حث الإذاعة ذات التمويل العام على بث النداء على موجاتها، مشدداً أن الأمر «لا يتعلق بالحيادية ولكن بالإنسانية».

بطبيعة الحال، لم يكن طومسون وسينتامو المعترضين الوحيدين، إذ

انضم إليهما زعيم الكنيسة الإنغليكانية وحوالي خمسين نائباً أمس، كما احتج مجلس «مسلمي بريطانيا» الذي يضم جمعيات مسلمة على قرار « بي بي سي» معتبراً أنه «تخل خطير عن واجباتها تجاه الجمهور». كما دعت وزيرة المجتمعات المحلية في الحكومة البريطانية هازل بليرز هيئة «بي بي سي» إلى مراجعة قرارها بينما اعتبر أندرو ميتشيل من حزب المحافظين المعارض أن هكذا خطوة تعود إلى الهيئات التلفزيونية «لكن يجب أن يترك الأمر للجمهور حتى يحدد رأيه بشأن المناشدة».

وقد تضمنت موجة المعترضين المتحدث باسم الحزب الليبرالي الديمقراطي لشؤون الإعلام دون فوستر الذي كان واضحاً في انتقاد القرار واصفاً إياه بـ «المشين».

Riyad Nassar Library

التضليل في ادعاء «الحيادية»:
الإعلام البريطاني في غزة مثالاً

السؤال المربك الذي تفاعل في الساحة الإعلامية البريطانية هو ما هي أطر «الحيادية» في التغطية الإعلامية البريطانية للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. وما دفع هذا السؤال إلى الواجهة هو هذا الجدل الصاخب الذي أثاره رفض كل من قناتي «بي بي سي» و«سكاي نيوز» بث نداء «الإغاثة الإنسانية لغزة» بذريعة أنه سيضحي بحيادية المحطتين.

لقد اشتد وتفاقم انتقاد «بي بي سي» لإيحائها ضمناً بأن حتى مجرد الاعتراف بالمعاناة التي يتعرض لها سكان غزة حالياً والبالغ عدد القاصرين منهم نسبة 56 في المئة، لا بد أن يشكل انحيازاً نحو الجانب الفلسطيني، وفي الوقت نفسه، تظهر دراسة أجراها «الراصد الإعلامي العربي» Arab Media Watch، أن هذا المنحى الشاذ في تفسير «الحيادية» ليس حكراً على الـ «بي بي سي» بل هو مرض مستشر في الصحافة البريطانية بمجملها.

هذه المعطيات التي تغطي النصف الأول من عام 2008 هي الأولى من نوعها إذ تركز على بحث دقيق معمّق لما دأبت عليه الصحافة

البريطانية في وصفها الهجمات المتبادلة بين الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني على أنها «انتقامية». وكشفت هذه الدراسة أنه حين تشير الصحافة البريطانية إلى جهة تشن هجمات انتقامية تنفذ رداً على هجمات سبقتها وكانت سبباً في شنها، فإن الجهة المعنية تكون الطرف الإسرائيلي بنسبة ثلاثة أرباع من مجمل التغطية الإعلامية البريطانية للصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني.

أما صحافة التابلويد فقد بلغ الانحياز فيها أوجه إذ وصفت كل الهجمات الإسرائيلية، دونما استثناء، بأنها انتقامة بنسبة مئة في المئة.

وانسحب هذا الأمر حتى على تلك الجهات الإعلامية التي ينظر إليها على أنها «متعاطفة» مع الطرف الفلسطيني. فجانبت جريدة «ذي أندبندنت» التغطية المتوازنة حين صورت إسرائيل كطرف يشن الهجمات انتقاماً لهجمات بادر الطرف الفلسطيني إلى شنها ابتداءً في 80 بالمئة من تغطيتها فيما بلغت هذه النسبة 59 في المئة من تغطية جريدة «ذي غارديان».

إضافة إلى ذلك، أظهرت الدراسة أن كل الجهات الإعلامية من دون استثناء لم تشر إلى أن عدد الهجمات الانتقامية التي قام بها الطرف الفلسطيني رداً على هجمات بدأتها إسرائيل يفوق التي خص الإعلام البريطاني إسرائيل بها. ولم يتجاوز 20 في المئة عدد مراسلي الصحف وكتاب زوايا الرأي الذين أشاروا إلى أن عدد الهجمات الثأرية التي شنها الطرف الفلسطيني رداً على هجمات بدأتها إسرائيل هي أكثر من تلك التي قامت إسرائيل بها رداً على هجمات بدأها الطرف الفلسطيني.

Riyad Nassar Library

وعلى رغم أن أعمال العنف التي مارستها إسرائيل من ضربات جوية وغارات واغتيالات إضافة إلى العدوان الذي شنته على غزة في شباط (فبراير) عام 2008 أسبغ عليها وصف «الانتقامية» بالنسبة للطرف الإسرائيلي و«المحرضة» بالنسبة للطرف الفلسطيني، جرى تصوير العنف الإسرائيلي على أنه «رد انتقامي» ثلاث مرات أكثر مما وصف بأنه محرض على رد فعل فلسطيني.

أما الحصار الذي ضرب حول غزة ووصفه ريتشارد فولك، الوسيط الخاص للأمم المتحدة، بأنه «جريمة ضد الإنسانية»، فعدا قلة ضئيلة، لم تعتبره القنوات الإعلامية البريطانية محرضاً يثير ردوداً انتقامية من الجانب الفلسطيني. وفي واقع الأمر، صورت الصواريخ الفلسطينية على أنها السبب في الرد الإسرائيلي خمس مرات أكثر مما صور الحصار على أنه سبب الهجمات الانتقامية الفلسطينية. أما 41 عاماً من الاحتلال فلم تصور على أنها عاملاً مسبباً لرد فعل فلسطيني سوى مرة واحدة يتيمة، ولم يذكر موضوع إقامة منشآت استيطانية جديدة أو توسيع تلك الموجودة منها كسبب محرض لرد فعل فلسطيني سوى مرتين.

وبطبيعة الحال، لا بد لمثل هذا الاتجاه في التغطية الإعلامية من أن يبقى العنف الفلسطيني دونما تفسير، ويظهره على أنه عدوان غير مبرر. وصُور إطلاق الصواريخ الفلسطينية كعامل محرض يثير رداً انتقامياً إسرائيلياً أربع مرات أكثر من تصوير الحصار على غزة أو الغارات التي تشنها إسرائيل أو الاغتيالات التي نفذتها كعوامل تثير ردود فعل انتقامية من جانب الطرف الفلسطيني.

Riyad Nassar Library

وبدا واضحاً من نتائج هذه الدراسة أن الإعلام البريطاني قد تبنى مفهوماً للصراع الدائر يقوم على أساس أن الطرف الفلسطيني عادة هو الذي يبدأ بالعنف فيستجيب الطرف الإسرائيلي لهذا العنف الفلسطيني غير المبرر. وبناء عليه، استقر هذا الإعلام على تجاهل عوامل «مسلسلات العنف» و«الاحتلال والمقاومة» كي يستتب على مفهوم للصراع لا بد أن يكون الأكثر تأييداً للطرف الإسرائيلي وحسمت المسببات قطعياً في مصلحته. وفي نطاق هذا المفهوم، فإن كل التصرفات الإسرائيلية تقع في خانة شرعية «الدفاع عن النفس» ويتمحور الانتقاد حول ما إذا كان الرد الذي تمارسه «يتناسب» مع نتائج الفعل الذي استدعى هذا الرد.

وبرز هذا الأمر في أجلى معانيه إبان التغطية الإعلامية للعدوان الأخير على غزة. رغم الستار المحكم على أعين الصحافيين، إذ منعوا من الدخول إلى غزة أصلاً، استمر هؤلاء في تكريس الادعاء بأن العمليات الإسرائيلية التي ذهب ضحيتها 1300 فلسطيني لم تكن إلا رد فعل انتقامي على الصواريخ التي أطلقها الطرف الفلسطيني، واستقطبت التغطية الإعلامية هذه الصواريخ وبالكاد جاءت على ذكر الحصار الذي ضرب على غزة طوال فترة ثمانية عشر شهراً ماضية سواء لجهة كونه انتهاكاً للهدنة المتفق عليها أو عاملاً مسبباً لإطلاق هذه الصواريخ.

وفي نسق مشابه، بالكاد ذكرت الغارة التي شنتها إسرائيل في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2008، والتي ذهب ضحيتها ستة مقاومين من «حماس» ولم تعتبر سبباً أدى إلى تجدد إطلاق الصواريخ التي كانت

توقفت في شكل كلي تقريباً في حلول تشرين الأول «أكتوبر» عام 2008 إذ لم يطلق طوال تلك المدة سوى مدفع هاون واحد تلاه صاروخ واحد يتيم.

هذه الإزدواجية في المعايير هي ما تعتبره الصحافة البريطانية «حياداً» في تغطيتها للصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. ومن هذا المنطلق، جاء رفض «بي بي سي» بث النداء الإنساني لإغاثة غزة على رغم أنها وافقت على بث نداءات إغاثة مماثلة لمصلحة المدنيين من سكان مناطق الصراع في الكونغو والسودان. وجاء هذا الرفض دليلاً إضافياً على قرار يتبناه الإعلام البريطاني بتبرير التفاوت في معاملة الفلسطينيين قياساً مع معاملة غيرهم من الأطراف المنكوبة على أساس أن هذا «التفاوت» هو من صلب «الحيادية وعدم الانحياز».

إنذار
إلى القناة الفرنسية الثانية بسبب غزة

تلقت القناة الفرنسية الثانية «فرانس 2» إخطاراً من المجلس الأعلى للسمعي ـ البصري في فرنسا يتعلق ببثها شريط فيديو عن الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي في غزة يخلي «بتعهداتها في مجال الأمانة الإعلامية».

وكانت المحطة بثت في نشرة أخبار الواحدة من بعد ظهر الخامس من كانون الثاني «يناير» تحقيقاً عما يجري في غزة، وضمنته شريطاً مأخوذاً من فيلم فيديو منقول عن الإنترنت يعود تاريخه إلى أيلول (سبتمبر) 2005 وهذا «خلافاً لما أشير من جانب «فرانس 2» بأن الشريط يعود إلى الأول من الشهر الحالي».

وعلى رغم أخذ المجلس في الاعتبار الاعتذار الذي وجهته المحطة في اليوم التالي، فقد اعتبر أنها «تخلت عن التزاماتها بالأمانة الإعلامية تجاه المشاهدين».

وكانت القناة الثانية قد بثت فيلماً لم تتجاوز مدته 12 ثانية يبين الأهالي في حالة رعب وهلع وجثث ملقاة في كل مكان.

Riyad Nassar Library

وذكرت القناة أن الشريط التقطه هاو بواسطة هاتفه الجوال عند انفجار شاحنة في مخيم للاجئين في جباليا.

المعركة مستمرة على جبهة الإعلام

مسلسل منع إعلاميين عرب من دخول غزة ما زال مستمراً. حلقة «بلا حدود» أكدت مجدداً أن السلطات المصرية تعوق أيضاً حركة الأطباء والمهندسين والحقوقيين... وكل مَن وما من شأنه أن يكشف جرائم إسرائيل.

ثلاث حلقات مباشرة، عشرات المقالات، مئات الطلبات الرسمية اليومية... والسلطات المصرية على موقفها: ممنوع دخول غزة. بعد حلقتين من برنامج «حوار مفتوح» (إعداد وتقديم غسان بن جدو) وحلقة من «بلا حدود» (إعداد وتقديم أحمد منصور)، أظهرت القمع الذي يتعرّض له بعض الصحافيين من السلطات المصرية، لا يزال إعلام «الجزيرة» محاصراً على معبر رفح. مُنع الإعلاميان العربيان «عمداً» من تأدية مهماتهما من داخل غزة، فما كان منهما إلا أن قدّما برنامجيهما من المعبر المقفل على بعد أمتار قليلة من القطاع المدمّر. حلقات كشفت عن «ممنوعين» آخرين من العبور هم أطباء، ومهندسون معماريون واختصاصيون زراعيون وبيئيون وحقوقيون جاؤوا من سوريا ومصر والنروج وفرنسا وأمريكا ليسهموا ـ كل في مجال اختصاصه ـ في تضميد جراح أهل غزة وتسليط الضوء على حاجاتهم ومعاناتهم وحقوقهم

Riyad Nassar Library

المهدورة. لكن السلطات المصرية ساهرة على الحدود، على ما يبدو حفاظاً على المصالح. . . الإسرائيلية.

«يؤسفنا أن السلطات المصرية اتخذت موقفاً متعمداً مني ومن غسان بن جدو ومن التقنيين»، هكذا افتتح الإعلامي أحمد منصور حلقته الخاصة من معبر رفح، حيث ينتظر مع زملائه منذ أكثر من عشرة أيام. منصور الذي استضاف المحامي الدولي وعضو لجنة التحقيق في الجرائم الإسرائيلية لؤي ديب مع الوفد النرويجي الفرنسي المرافق، لم يُخفِ أساه كإعلامي ومواطن مصري، من رفض حكومة بلاده طلبه أكثر من مرة. وبعد كشف حلقة «حوار مفتوح» الأخيرة عن الأسباب الواهية التي تعطيها السلطات المصرية للأطباء المتطوّعين مثلاً، وتبرير منعهم بالقول «القطاع لا يحتاج إلى هذه الاختصاصات»، سلّط منصور الضوء على منع دخول لجنة التحقيق لإدانة الجرائم الإسرائيلية. القطاع أيضاً لا يحتاج إلى هذا النوع من العون؟

لؤي ديب لم يجد تفسيراً لموقف السلطات المصرية التي منعته من الدخول سوى «أنه لمصلحة إسرائيل». وأكّد أنه ورفاقه «باقون حتى يسمح لهم بالدخول، وهدفهم إيجاد الأدلة على محاكمة الضباط الإسرائيليين على جرائمهم»، بناءً على قرار المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية مورينو أوكاميو. وعلى رغم أن قرار هذا الأخير صُنّف بـ «التاريخي»، إذ أفلت من الضغوط الإسرائيلية المعتادة، فإن الساهرين على مصالح إسرائيل يحاولون جاهدين أن يحافظوا على براءتها. «هل سنتمكن من رؤية إسرائيل وضبّاطها يحاكمون أم أن هذا حلم؟» سأل

أحمد منصور المحامي الدولي، فأجاب: «ذلك ليس حلماً لكنه يتطلب عزيمة». وختم منصور حلقته بتحية وجّهها «من بلا حدود على الحدود المقفلة». . .

حرب الإنترنت

Riyad Nassar Library

«الرفاق الهاكرز»
يساندون فلسطين على طريقتهم

«أعلنوها حرباً مفتوحة فلتكن، حرب الإنترنت بدأت لنصر أهل غزة وفلسطين، والمواقع الإسرائيلية بدأت تتهاوى تحت قبضاتنا»، يرتفع صراخ الشباب في أحد مقاهي الإنترنت في لبنان. فقد «أسقطوا» لتوّهم موقعاً إسرائيلياً على الشبكة العنكبوتية، واحتلت شاشته صورة سوداء يطل منها ما يشبه الشبح الذي تقطر عيونه دماً كتبوا تحته «جاءتكم أرواح الشهداء الأطفال في غزة يا أنذال». هكذا إذاً، جاءك المدد يا غزة من العالم الافتراضي.

«نواصل العمل ليل نهار، نضاعف مجهودنا وننام قليلاً منذ بداية الحرب، لأن المعارك تحتاج إلى قيادة حكيمة ومقاتلين أشداء» بحسب ما يقول أحد هؤلاء القراصنة «هاكرز» ويسمي نفسه «روميو». يتواصل «روميو» مع أصدقائه القراصنة «هاك باك» و«مستر نايت» وغيرهما، بلغة مشفرة. وهو يقول: «نحن مجموعة من حوالي عشرين قرصاناً، نتشاور ونحدد الهدف وتبدأ عمليات الهجوم المنظم والساحق على المواقع المختارة، مستخدمين تقنيات عالية جداً تساعدنا في ذلك، ولا نتوقف

إلا بعد أن نتأكد من تدمير الهدف، أو ندرك أنه محصن إلى درجة لا يمكن اختراقه بسهولة، نغيّر الخطط ونحاول من جديد».

قرر هؤلاء مساندة غزة بأي ثمن. ويقول «روميو» «لم نكن في الماضي نهاجم الشركات أو المواقع الخاصة، ولكن بعد الذي يحدث قررنا إبادة أي موقع إسرائيلي يمكننا الوصول إليه. لذلك دمرنا مواقع لشركات تجارية ومؤسسات خاصة، ومواقع عامة تابعة لأحزاب أو للحكومة الإسرائيلية». ويضيف بافتخار «إنها أجمل لحظات العز والفخر لنا حين نضع صور شهداء غزة وأعلام المقاومة اللبنانية على المواقع التي نحتلها وندمرها».

وقد أرسل القراصنة بياناً نشر على موقع «الحزب الديموقراطي اللبناني» جاء فيه «أن مجموعة من «الرفاق» القراصنة أغارت ليل أمس على 9 مواقع إسرائيلية انتقاماً للمجازر في غزة، لتجعل من تلك المواقع منبراً لرفضها الحرب الهمجية، معلنين نصرتهم لأهل غزة وحماس والمقاومة الإسلامية ـ حزب الله، وقد استعاد الإسرائيليون بعض المواقع، والبعض الآخر لا يزال تحت سيطرتنا، ونعدكم بالمزيد في الأيام المقبلة، والنصر للمقاومة».

ويؤكد «مستر نايت» الذي يضم سجله عشرات الهجمات على مواقع إسرائيلية منذ عدوان تموز 2006، أنه «بخصوص المواقع التي أعطلها، فهي تلك التي لا تتوافر لها حماية كافية، وأحياناً أختار موقعاً محمياً بطريقة جيدة، وأقضي وقتاً طويلاً في دراسة نظام الحماية هذا وابتكر

وسائل لكسره». ويؤكد «مستر نايت» أنه لا يخاف افتضاح أمره لأنه يكاد يستحيل وضع اليد على ما يقوم به، إذ إنه بعد إنجاز عملياته ينسحب من دون أن يترك أثراً قد يوصل إليه. ويضيف «مستر نايت»: «أقوم بالعمليات من محل إقامتي، وبعد ذلك أعمد إلى محو الآثار التي قد تدل عليّ، ومن أجل القيام بذلك يجب توافر معرفة عميقة بكيفية اشتغال الأنظمة والتغييرات التي تجري على الآلات، مع الأخذ بعين الاعتبار طرق عمل مديري المواقع. وأستعمل أحياناً برامج ابتكرها بنفسي لغرض القرصنة، ويحدث أيضاً أن أدخل تعديلات على وسائل مستخدمة من طرف هاكرز آخرين حسب حاجتي». والحالة الوحيدة التي يمكن فيها وضع اليد على الهاكرز هي عندما يقوم بالهجوم على موقع ما ويكون مدير هذا الموقع على الخط في الوقت نفسه، وهي حالة غير ممكنة بالنسبة للمواقع الإسرائيلية غير الأمينة التي لا تُراقب بانتظام، وقد تُهاجَم فتبقى معطلة لمدة تزيد عن أسبوع دون التفكير في إصلاحها.

من جهة أخرى تشهد المواقع الإلكترونية وصفحات الفايس بوك منبراً يبرز مدى تأثير الحرب على غزة على المستخدمين. وترى المواقع وقد اعترتها السجالات السياسية، أن الجميع متفق على التضامن مع غزة، ولكن الخلافات السياسية الفلسطينية واللبنانية انعكست من خلال المجموعات التي تألفت على صفحات الفايس بوك، ومنها على سبيل المثال «حملة التضامن مع غزة كي لا تموت ضمائرنا» ومجموعة أخرى

«اكسروا الحصار على غزة، أزيلوا حكم حماس» ومجموعة لبنانية تحت عنوان «لن نحتفل بليلة رأس السنة حداداً على شهداء غزة» أو مجموعة «رائعة جوليا بطرس (قاوم) إهداء لكل المقاومين».

وعنونت صفحات الفايس بوك بمعظمها بعبارات تعكس حالة الحرب من قبيل «فلسطين من النهر إلى البحر، ستعود بقوة السلاح» أو عنوان آخر «مبارك سيسجل التاريخ أنك خائن هذا العصر» أو «بدماء أطفال غزة، كاسك يا ملك السعودية، يا ملك الخيانة».

لائحة بالمواقع التي هاجمتها المقاومة اللبنانية للرد على مجازر غزة:

1 ـ http://www.zone-h.org ـ موقع أمن العمال الإسرائيلي

2 ـ http://blady.co.il ـ شركة إسرائيلية

3 ـ www.europa.org.il ـ شركة إسرائيلية

4 ـ www.obu.co.il ـ موقع لرابطة طلاب

5 ـ www.grantcheck.net ـ شركة إسرائيلية

6 ـ www.thegrassroots.us ـ شركة إسرائيلية

7 ـ www.tikunima.org.il ـ شركة لخدمات وإصلاح المنتجات المنزلية والإلكترونيات.

8 ـ www.greenfields.co.il ـ شركة تعتني بالمزارع الإسرائيلية

9 ـ http://www.yapani.net ـ شركة إسرائيلية.

مواجهات «الرصاص المسكوب»

لم تستطع شبكة الإنترنت تجنب حرب غزة. والأدق القول إنها رافقتها بالبث الحي. وبذا، اندلعت حرب في فضاء الإعلام الرقمي بموازاة المعارك الدائرة في قطاع غزة بين جيش الاحتلال الإسرائيلي وفصائل المقاومة الفلسطينية. ولأن الحرب الفعلية تفرض نفسها على الفضاء الإلكتروني. تظهر في شاشة الكومبيوتر عينها مواقع تحض على التبرع لأهالي غزة، وأخرى تحض على مد اليد لأطفال إسرائيل الجياع في مناطقها الجنوبية الواقعة تحت ضغط «الإرهاب».

تردد الشبكة العنكبوتية أصداء انقسامات عربية ـ عربية، وفلسطينية ـ فلسطينية، وعربية ـ دولية، ونوبات غفوة عربية ودولية. وتبدو الانترنت ميالة إلى نوع من «الشعبوية» التي تنسجم مع صيتها بأنها «برج بابل» رقمي! وتسمع فيها دعوات إلى التطوع في صفوف المقاومة، دعوات للإطاحة بالأنظمة، تراشق بالألفاظ بين مدوّنين إلكترونيين (بلوغرز) عرب يتهم بعضهم البعض بالخنوع والخيانة، مطالبة بالتوقف عن خوض الحروب لمصلحة آخرين، تحاليل سياسية واستراتيجية، وألسنة ساخرة وأخرى غاضبة من الجميع.

وشملت هذه الحرب الإلكترونية وسائل جديدة: تمكن بعض مناصري حركة «حماس» من اختراق موجات بث بعض الإذاعات الإسرائيلية المحلية، واستعملوها للنيل من الجانب المعنوي لخصمهم. وكذلك لجأت إسرائيل إلى استخدام شبكة الهاتف اللبنانية، التقليدية والخليوية، لبث رسائل صوتية مسجلة تُهدّد بتكرار الخراب الهائل الذي أحدثه الجيش الإسرائيلي في عدوان تموز (يوليو) 2006. وقد عمدت إسرائيل إلى أمر مشابه أثناء ذلك العدوان، وحينها، بثت رسائل خاطبت زعيم «حزب الله» السيد حسن نصر الله، موجهة إليه تهديدات.

ويتولى إدارة رحى الحرب المشتعلة على صفحات الإنترنت نشطاء متمكنون من مهارات الكومبيوتر. ويأتي هؤلاء من الجانبين المتورطين مباشرة في النزاع العسكري الراهن، إضافة إلى أعداد من مؤيديهما.

وتبادل أولئك النشطاء «عمليات» كرّ وفرّ نشطة شملت محو بعض المواقع وإغلاق مجموعات في موقع «فايس بوك» الشهير. واستُبدلت المواقع الممحوة بصفحات إلكترونية تحتوي على بيانات مؤيدة للجانب الذي يناصره الناشط الرقمي.

وفي إطار هذه الحملة استهدفت مواقع إلكترونية تابعة لآلة الحرب الإسرائيلية، ومواقع تابعة لحلف شمال الأطلسي «ناتو» ومواقع إسرائيلية من بينها موقع لأحد المصارف.

وحذر خبراء الإنترنت مستخدمي الشبكة العالمية من محاولات

اختراق بريدهم الإلكتروني في سياق نشر رسائل طفيلية (سبام) تشرح وجهات النظر المتقابلة في تلك الحرب. كما أطلقوا تحذيرات مماثلة لمزودي خدمات الإنترنت، مطالبين هؤلاء بزيادة الحيطة في أعمالهم.

حلف «الناتو» والهاكرز

على نحو يُذكر بما دار على الشبكة الإلكترونية أيام حرب «كوسوفو» هاجم «قراصنة إنترنت» (يعرفون أيضاً باسم «هاكرز») مؤيدون للجانب الفلسطيني، مواقع رقمية بارزة من بينها موقع إلكتروني تابع للجيش الأمريكي وآخر تديره «الجمعية البرلمانية لحلف الناتو».

واستطاع النشطاء الإلكترونيون الفلسطينيون محو صفحات هذين الموقعين وتركوها بيضاء فارغة باستثناء صورة شهيرة لصبي يقذف دبابة إسرائيلية بالحجاة في غزة.

وخلّف الهاكرز الفلسطينيون وراءهم جملة تقول: «أوقفوا الهجمات يا إسرائيل والولايات المتحدة! أنتما أمتان ملعونتان! يوماً ما المسلمون سينظفون العالم منكم».

وقال مسؤول في حلف الناتو إن الهاكرز الفلسطينيين واصلوا هجماتهم الرقمية على موقع الجميعة البرلمانية للحلف على مدى أيام في أعقاب الهجوم الأول للجيش الإسرائيلي.

وأضاف أن هؤلاء الهاكرز لم ينجحوا في الوصول إلى خوادم شبكة

الإنترنت الداخلية للموقع المذكور. وخلص المسؤول للقول: «الأمر يشبه لعبة القط والفأر... لا يوجد نظام محصن من عدم الاختراق».

كما هاجم القراصنة الإلكترونيون المؤيديون للفلسطينيين مواقع إسرائيلية عدة، من بينها موقع «بنك ديسكاونت». وكذلك فعلوا مع أحد المواقع الإخبارية. واستطاعوا أن يحوِّلوا قراء ذلك الموقع إلى صفحة مكتوب عليها رسائل مناهضة لإسرائيل مع صور لسجناء ترتكب ضدهم انتهاكات في سجن «أبو غريب» في العراق.

وتزايد عدد الهجمات في شكل كبير خلال الأشهر الأخيرة داخل إسرائيل. وربط أحد المسؤولين الإسرائيليين العاملين في مجال الإنترنت بين تلك الهجمات وما يدور في غزة من أعمال حربية.

وعلى الجانب الآخر، هوجمت المواقع الإلكترونية المؤيدة للفلسطينيين، إضافة إلى مواقع عرب إسرائيل. وبرز اسم المجموعة الإسرائيلية اليمينية المتطرفة التي تعرف باسم «كاش» باعتبارها من الجهات التي تنظم تلك الحملات. وذكر عز الدين بدران مدير قسم الأخبار في موقع «عرب 48» على الإنترنت أن موقعه «عانى في شكل مستمر من هجمات القراصنة».

معركة «فايس بوك»

وتتبدى الحرب الإعلامية الرقمية بجلاء في الموقع الاجتماعي الشهير «فايس بوك» Face Book الذي يضم مجموعات كثيرة لها ارتباط بالصراع في غزة. واندلع الصراع في الموقع عندما تمكنت مجموعة

تحمل اسم «قوة الدفاع اليهودية على الإنترنت» من السيطرة على مواقع عدد من المجموعات المؤيدة للجانب الفلسطيني.

وأزالت هذه المجموعة محتوى مجموعة من المواقع اعتبرتها مناوئة لها، واستبدلت بها بيانات مؤيدة للسياسة الإسرائيلية ومناهضة لحركة «حماس» الإسلامية الفلسطينية التي تسيطر على قطاع غزة.

وتضرر أندرو سيلفيرا، الذي يعتبر أحد النشطاء في العديد من المواقع المناصرة للفلسطينيين على «فايس بوك» من أعمال القرصنة الإلكترونية.

ويقول أندرو إن حسابه على الإنترنت قد هوجم بعدما استجاب لطلب وصله عبر صفحته في موقع «فايس بوك» من مستخدم آخر دعاه فيه لتولي مسؤولية جماعة تؤيد وقف النار فوراً في غزة.

وأضاف أن «بمجرد ما ضغط على الرابط الذي رافق تلك الدعوة، أدركت أن ثمة خطأ... لم يكن الرابط يؤدي إلى مجموعة عادية من مجموعات «فايس بوك»... بمجرد أن ضغطت على الرابط تبخر حسابي على الإنترنت».

فن التضليل والإقناع

حرب اللغة والمصطلحات[1]

حرب إسرائيل على غزة كانت حربين، عسكرية ودعائية، شنتهما بالضراوة والشراسة عينها. لا مبالغة في ذلك. منذ الغارة الأولى في 27 كانون الأول 2008، بل منذ ما قبل الغارة بوقت طويل كانت فرق من الجيش الدعائي تطبق خطة مرسومة بدقة: تمهيد الأرض للحرب الآتية وتطويق وسائل الإعلام التقليدية والحديثة ومحاولة السيطرة عليها سيطرة كاملة وقصفها برسائل تضليلية محددة وموحدة كي تترسخ في الأذهان، وفتح خطوط إمداد إعلامية لتعميم الرسائل وتوحيد الكلمة وضمان طغيانها على أنها كلمة أخرى أو أي صورة أخرى حتى لو كانت لمئات القتلى من الأطفال الفلسطينيين. كيف استعدت لها؟ كيف خاضتها؟ وإلى أين وصلت بها وبالحرب العسكرية؟

الرسائل التي أرادت إسرائيل إيصالها إلى العالم وخصوصاً إلى الغرب تنبع من فكرة واحدة تحاول تكريسها منذ سنوات: الصراع ليس بين الإسرائيليين والفلسطينيين، هو صراع بين المعتدلين والمتطرفين. وعلى العالم في هذه الحرب أن يحفظ الآتي:

---

(1) سحر بعاصيري، النهار.

إسرائيل تمثل «الاعتدال» وحماس تمثل «الإرهاب».

إسرائيل تدافع عن نفسها وحماس هي المعتدية.

إسرائيل لا تدمّر غزة ولا تقتل الأبرياء والأولاد لأن حماس مسؤولة عما يحصل هناك. فكل ما يشاهده العالم على شاشات التلفزيون هو من صنع حماس.

كيف حاولت إسرائيل تكريس هذه الرسائل؟

لنبدأ بما تنسبه إسرائيل إلى نفسها: الاعتدال. هذه قصة قديمة تسبق حرب غزة وتتجاوزها في محاولة لتغيير شكل الصراع. كل عمل مقاومة هو بالنسبة إلى إسرائيل إرهاب. ولكن بعد هجمات 11 أيلول 2001 على الولايات المتحدة نجح رئيس الوزراء الإسرائيلي في حينه أرييل شارون إلى حد كبير في مساواة الفلسطينيين بالإرهابيين. جاء إلى البيت الأبيض في كانون الأول 2001 وصرّح لدى انصرافه: «أنتم في أمريكا تخوضون حرباً ضد الإرهاب. ونحن في إسرائيل نخوض حرباً ضد الإرهاب. إنها الحرب ذاتها». ومذ ذاك تقدّم «وقف الإرهاب الفلسطيني» مشكلة الاحتلال في أي بحث عن حل. ومذ ذاك يومها أيضاً يردد المسؤولون الإسرائيليون النغمة نفسها وأنشطهم حتى الآن وزيرة الخارجية تسيبي ليفني التي قلّما خلا تصريح أدلت به أو خطاب ألقته في السنتين الأخيرتين من هذه العبارة أو ما يشبهها: الصراع ليس بين الإسرائيليين والفلسطينيين، أو بين اليهود والعرب، بل هو صراع بين المعتدلين والمتطرفين. كررتها في كل المنابر وأضافت إليها ما

يفترض أن ينزّه إسرائيل عن الصراع. مثلاً في تشرين الأول 2007 قالت في مؤتمر عن العلاقات بين إسرائيل وحلف شمال الأطلسي: «واضح أن النزاعات الإقليمية في الشرق الأوسط ليست سبباً للتطرف بل نتيجة لهذه الظاهرة» وأن «الإقرار بحقيقة أن التطرف هو في جذور النزاع الإقليمي يؤثر على فهم هذا النزاع وعلى العلاقات الفلسطينية ـ الإسرائيلية»، وفي نيسان 2008 في منتدى الدوحة اعتبرت أن إسرائيل ليست طرفاً في الصراع في المنطقة وهو صراع بين المتطرفين والمعتدلين. وأخيراً قالت قبل أيام في واشنطن «إن الحرب على الإرهاب لا تنتهي بالتوصل إلى عملية السلام وبمصافحة الأيدي في البيت الأبيض لأن المسألة لم تعد صراعاً إسرائيلياً ـ فلسطينياً إذ إن هذا صار شيئاً من الماضي».

تكرار هذا الكلام كي يرسخ في الأذهان يعني تتفيه الاحتلال وإلغاء المطالب الوطنية الفلسطينية والقضاء على ما يتبقى بجعله إرهاباً للمكافحة. طبعاً هذا هو الإطار العام لتبرير الحرب على غزة وربما غيرها. هي ليست حرباً على الشعب الفلسطيني، تقول إسرائيل: بل هي حرب على «حماس» وهذه «منظمة إرهابية» تحكم غزة ومسؤولة عن كل ما يجري فيها أو يصيبها. متى ترسخت هذه الرسالة يسهل ارتكاب أي جريمة في غزة والرهان على تسامح الغرب في الدرجة الأولى لأن الكلّ يعرف سلفاً أن الكلفة البشرية والمادية لأي حرب هناك كانت ستكون عالية جداً نتيجة الاكتظاظ السكاني وانسداد منافذ الخروج من القطاع.

وضعت إسرائيل خططها الإعلامية والدعائية باكراً. وقال مسؤولون إسرائيليون في أكثر من مناسبة إنهم تعلموا من الحرب على لبنان في تموز 2006 عندما سمحوا للصحافيين الإسرائيليين وغيرهم بدخول الجنوب فنشروا تقارير وتحقيقات ولا سيما في وسائل الإعلام الإسرائيلية بينها الكثير مما حمل انتقادات لعمليات الجيش وسلوك بعض الضباط والجنود وكان الأمر محرجاً للقيادة الإسرائيلية. هذه المرة لم تشأ إسرائيل أن تترك الأمر خارج السيطرة الكاملة.

قبل بدء حربها بأشهر وفيما كانت قيادة الجيش تعد الخطط وتجمع المعلومات الاستخبارية، كانت الحكومة تعد لإنشاء مركز إعلامي متعدد اللغة اعتبرت أنه يكفي لتزويد الصحافيين ما يريدون من أخبار وصور وأشرطة فيديو وباللغة التي يفهمونها، وكلفت مجموعة من الخبراء مسؤولية ترويج وجهة النظر الإسرائيلية باكراً كي تكون الأرض جاهزة عندما تبدأ الحرب. وهذا ما أكده السفير الإسرائيلي السابق آفي بازنر أحد المكلفين الترويج والإعلام استناداً إلى جريدة «جويش كرونيكال» إذ قال إنه «عندما يبدأ القصف يصير شرح موقفنا للعالم أصعب. لذا هذه المرة كل شيء كان مرتباً من قبل».

وما أن بدأت حتى كان كل شيء في مكانه. المركز الإعلامي في سديروت المدينة التي استهدفتها صواريخ «حماس». فرق الكلام الواحد والرسائل الموحّدة متوافرة لخدمة الصحافيين ليل نهار شرط ألا يطلبوا دخول غزة. الخبراء والناطقون باسم الحكومة يجتاحون وسائل الإعلام المحلية والغربية وحتى بعض الفضائيات العربية ويكرّرون الرسالة عينها:

«إسرائيل المعتدلة تدافع عن نفسها ضد حماس الإرهابية والمسؤولية كلها تقع على حماس».

منعت إسرائيل دخول الصحافيين الإسرائيليين والأجانب إلى غزة على رغم حكم لمحكمة العدل العليا سمح بدخول عدد قليل منهم. القرار لم يكن مفاجئاً لأنها بدأت بمنعهم من ذلك في تشرين الثاني 2008 عندما كانت التهدئة مع «حماس» لا تزال سارية. وهكذا لم يبق أمام مئات الصحافيين مع بدء الحرب إلا الاختيار بين البقاء مع الجيش الإسرائيلي، في المركز الإعلامي طبعاً، أو البقاء بعيداً منه. ولكن حتى هؤلاء لم يرتاحوا من «القصف الإعلامي» للجيش. إذ كانوا يتلقون رسائل قصيرة على هواتفهم الخليوية يعرض فيها الجيش مساعدتهم على التغطية وباللغة التي يشاؤون. عملياً كان مراسلو الجيش ومصوّروه يغطون الحرب ويعدّون التقارير والصور المعقمة ويوزعونها على وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة. بل بلغت التعمية في الصحف المحلية حدًّا أنه في 7 كانون الثاني عندما قصفت إسرائيل مدرسة لـ «الأونروا» فيها لاجئون وقتلت 40 منهم بينهم عدد كبير من الأولاد، نشرت «يديعوت أحرونوت» الصحفية الأوسع انتشاراً في إسرائيل، صورة المجزرة في الصفحة السابعة، بينما احتل الصفحة الأولى خبر مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين بـ «نيران صديقة».

هذا التقييد الإعلامي بعد سنوات التعبئة ضد غزة و«حماس» خدم إسرائيل في الداخل وأمّن لها دعماً كبيراً تجاوز 80٪ على رغم أن من أراد من الإسرائيليين معرفة ما يجري في غزة كان يمكنه الاطلاع عليه

من الفضائيات العربية أو الغربية أو من الإنترنت. مع هذا فإن قلة فقط شككت في جدوى الحرب وكثيرون اعتبروا أن الجيش تأخر سنوات لشنها.

واجتاحت إسرائيل الإنترنت عملياً. الجيش أنشأ موقعاً خاصاً به على «يوتيوب» لعرض أشرطة فيديو وصور تظهر ما قال إنها عمليات فائقة الدقة في قصف مواقع «حماس» أي أنها تظهر إنسانيته في محاولة تفادي المدنيين، وحتى منتصف كانون الثاني كان 1,5 مليون مستخدم زاروا الموقع. ووزارة الخارجية حضرت بقوة على موقع خدمة الرسائل القصيرة «تويتر» الذي تحوّل موقعاً إخبارياً كبيراً يتحدث فيه ناطقون باسمها ويشرحون الحرب ويناقشون. بل عمدت عبر شبكة واسعة من المؤيدين إلى تجنيد مئات وربما أكثر من المتطوعين على الإنترنت لبث الرسائل ذاتها. وقد نقلت «الجيروزاليم بوست» عن الميجر أفيتال ليبوفيتش رئيسة دائرة الإعلام الأجنبي في الجيش أن «فضاء البلوغز ووسائل الإعلام الحديثة هي جبهة حرب جديدة ويجب أن نكون حاضرين عليها».

ومنعاً لأي خطأ في عملية التطويق هذه، عمّمت إسرائيل على ممثليها وحلفائها في الغرب من مسؤولين وإعلاميين وخبراء وعلى جمعيات الصداقة اليهودية مذكرة تحدد النقاط الواجب التقيّد بها عند الحديث عن حرب غزة. وقد نشر أحد المواقع الإلكترونية المرتبطة مباشرة بالحكومة «ذاإسرائيلي بروجكت» دليلاً لغوياً يحدد إطار الكلام عن حرب غزة والنقاط المحددة التي يجب إثارتها والجمل التي يجب

تكرارها إن في البيانات أم في التصريحات والمقابلات الصحافية في كتابة المقالات أو التعليقات. وهذا «الدليل» يدخل عملياً في إطار الاستراتيجيا الدعائية لإسرائيل والتي تتبّع خطوطاً أساسية أبرزها:

أولاً، الحضور الطاغي في وسائل الإعلام بما يقزّم عملياً أي حضور للخصم بل حضور متخصص لخبراء دعاية وأعلام يفهمون المجتمع الذي يخاطبون ويتحدثون إليه بأمثلة من عنده أو قريبة من حياته.

ثانياً، التأكد من تحديد إطار النقاش لضمان التحكم به والتفوق فيه على الخصم وتالياً ضمان ترسيخ الفكرة الأساسية لفهم الحرب في أذهان المشاهدين أو القراء. وليس مصادفة مثلاً أن إسرائيل نجحت في حدّ كبير هذه المرة في ترويج كون الحرب بدأت عملياً في 19 كانون الأول عندما أعلنت «حماس» انتهاء التهدئة وليس في 27 منه عندما بدأت هي حربها، وهذا ساهم أيضاً في ترسيخ «مسؤولية حماس» فيما تجاهلت إسرائيل كلياً انتهاكاتها للتهدئة وعدم التزامها ما نصت عليه من فتح المعابر وتجاهلت مسؤوليتها في ما فعله حصارها بغزة منذ انسحاب قواتها منها عام 2005.

ثالثاً، استغلال الصور النمطية للعرب والمسلمين في الغرب لأنها تسهّل ترويج الحجج الإسرائيلية. فالصور النمطية سيئة أصلاً وقد ازدادت الاستعدادات في الغرب لتصديقها بعد 11 أيلول 2001. فالعربي أو المسلم هو في أسوأ الأحوال إرهابي وفي أحسنها مشروع إرهابي. وإسرائيل ساهمت تاريخياً في ترويج هذه الصور وتغذيتها. ألم تقل غولدا مئير ذات يوم «يمكن أن نسامح العرب لقتلهم أولادنا ولكن لا

يمكن أن نسامحهم لجعلنا نقتل أولادهم». هذا يضع الفلسطينيين ضحايا الحرب عملياً في مصاف المجرمين الذين إما يستحقون الموت وإما لا يستحقون التعاطف. الضحايا تصير مجرد أرقام وقتل المدنيين بمن فيهم الأولاد يصير مبرراً.

رابعاً، الإصرار على نفي أية وقائع أو معلومات تتضمن انتقادات لسياسات إسرائيل أو أعمالها حتى لو كانت صوراً لدمار وقتلى، والمخرج في مثل هذه الحال لعب دور الضحية، أي لوم الطرف الآخر: إسرائيل لم تفعل ذلك، لكن الآخرين دفعوها إلى ذلك. وقد فعلت ليفني هذا عندما ردت على طلب الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي إعلان هدنة إنسانية بإصرارها على أن «لا أزمة إنسانية في غزة».

أخيراً، في حال استهلاك الحجج إزاء انتقادات متواصلة واتهامات لإسرائيل، يبقى السلاح الأمضى لوقفها هو التلميح للمنتقد بموضوع معاداة السامية فيتوقف.

هذه الخطوط العريضة. أما التفاصيل ففي «الدليل اللغوي» الذي لا يترك تفصيلاً إلا ويذكره. وهنا نماذج مختارة من التوجيهات لما يسمى رسائل يجب التركيز عليه وعبارات مفيدة للاستخدام.

من «الرسائل»:

- «إسرائيل تدافع عن مواطنيها ولا تختلف عن أي دولة أخرى ذات سيادة عليها حماية مواطنيها من الذين يريدون قتلهم، وهي أظهرت حتى

الآن ضبط نفس كبيراً حيال هجمات الإرهابيين في غزة». ولكن تذكروا أن العالم لا يعرف إلا القليل عن الهجمات الصاروخية لـ «حماس». فقد أظهرت دراسة أن 60٪ من الأمريكيين لم يسمعوا بها أو سمعوا قليلاً جداً عنها. لذا يجب تهيئة الأجواء لتأكيد حق إسرائيل في الدفاع عن النفس بوصف الوضع خصوصاً على مستوى إنساني. اذكروا أن أكثر من 6300 صاروخ أطلقت من غزة على إسرائيل منها ثلاثة آلاف في 2008 وحدها وأنها تصل في دفعات، خمسة صواريخ، عشرة وأحياناً خمسين في اليوم عينه، وأنها أصابت غرف الجلوس ودور الحضانة والملاعب وأصابت أطفالاً في طريقهم إلى المدارس ونساء يتبضعن، وأن العائلات في سديروت تنام منذ ثلاث سنوات في الملاجىء بدل غرف النوم. وذكروا أن 13 بريئاً قتلوا و780 جرحوا وألوفاً أصيبوا بالهلع وأن عدد هذه الصواريخ ازداد هذه السنة وكذلك مداها وبدأت تهدد مدناً أخرى. من المهم تثقيف الرأي العام بطريقة إنسانية وشخصية عن حال الحصار التي يعيشها سكان سديروت ويواجهونها يومياً. الأولاد لا يستطيعون النوم. لا يذهبون إلى المدارس. لا يعيشون حياة طبيعية. لماذا؟

- إسرائيل انسحبت من غزة قبل ثلاث سنوات ولا نية لديها للعودة. ألوف الرجال والنساء والأولاد والجنود تركوا غزة في أيدي الفلسطينيين على أمل أن يحل السلام. ولكن علامَ حصلوا في المقابل؟ على الإرهاب.

- الإشارة إلى «حماس» وغيرها من المجموعات الفلسطينية على أنها

إرهابية تمولها إيران من أجل إبقاء موضوع تطوير إيران أسلحة نووية في العناوين أيضاً.

ـ هدف «حماس» هو إزالة دولة إسرائيل.

ـ فيما تمارس إسرائيل حقها في الدفاع عن نفسها علينا أن ندرك أننا نواجه مشاهد وصوراً قوية ومدمرة في الإعلام لأبرياء فلسطينيين يقتلون أو يصابون في العمليات الدفاعية. لذا علينا أن نتعاطف معهم ونظهر رغبة إسرائيل في السلام ركناً أساسياً في استراتيجيتنا.

ـ الرئيس المنتخب باراك أوباما محترم جداً في العالم وخصوصاً بين حلفائنا الأوروبيين، ولآرائه وكلامه وزن بين الناس الذين لا يزال علينا أن نكسب قلوبهم وعقولهم. استخدموا أقوالاً له واستشهادات من كلامه للتركيز على أهمية الموضوع. خلال حملته الانتخابية زار أوباما سديروت وقال في مؤتمر صحافي في أحد مراكز الشرطة عن إطلاق صواريخ «القسام»: «إذا كان أحد يطلق صواريخ على منزلي حيث تنام ابنتيّ ليلاً، سأفعل كل شيء لأمنعه وأتوقع من إسرائيل أن تفعل الشيء عينه». وقال عن التهديد النووي الإيراني إن «إيران» نووية ستشكل تهديداً خطيراً وعلى العالم أن يمنعها من امتلاك سلاح نووي.

ومن «الجمل المفيدة التي تؤدي الغاية»:

ـ إسرائيل ملتزمة مستقبلاً أفضل يعيش فيه الإسرائيليون والفلسطينيون جنباً إلى جنب بسلام.

ـ إسرائيل تريد انتهاء الألم والمعاناة وملتزمة العمل مع الفلسطينيين في اتجاه حل سلمي سياسي يكون فيه للجانبين مستقبل أفضل.

ـ إسرائيل قدّمت تضحيات مؤلمة لإعطاء السلام فرصة. أزالت طوعاً 9 آلاف مستوطن من غزة وأجزاء من الضفة. تخلت عن منازل ومدارس وأعمال وأماكن عبادة على أمل تجديد عملية السلام.

ـ نريد كلاماً أكثر وجروحاً أقل، حواراً أكثر وموتاً أقل.

ـ الطرفان يستحقان مستقبلاً أفضل.

ـ أطفال إسرائيل يتعلمون عن السلام والتسامح في المدارس. قاعاتهم مليئة بصور رياضيين وعلماء ورواد فضاء. وأنا أصلي لنصل إلى يوم تعلّم حماس الأولاد الفلسطينيين الطموح إلى أن يكونوا أطباء ومحامين وأساتذة لا أن يكونوا انتحاريين يطمحون إلى الموت. ألا تعتقدون أن هذا استغلال وإساءة معاملة للأولاد؟

ـ أريد للأولاد الفلسطينيين أن يكبروا لا أن يتفجروا. ألم يحن الوقت لهم لتبديل الجهاد بوظائف والكراهية بالأمل؟

ـ ماذا على إسرائيل أن تفعل؟ (الجمهور أمريكي) تصوروا لو أن صواريخ أطلقت من كندا على بيوتكم في روتشستر ليل نهار. ماذا تفعل أمريكا؟

ـ الفلسطينيون يستحقون حكومة تزيل الإرهاب ليس لأنها تجعل أولادي أكثر أماناً بل لأنها تصنع مستقبلاً أفضل لأولاد فلسطين.

لا أعتقد أن أحداً تابع أخبار الحرب لم يسمع مثل هذا الكلام على ألسنة ناطقين إسرائيليين. التوجيهات الإسرائيلية ترددت في أكثر من دولة وفي تصريحات كثيرة. في الولايات المتحدة مثلاً سمعنا سيلاً من

التصريحات لنواب وممثلين متخبين بعضهم يعيد حرفياً ما جاء في «الدليل» ولا سيما التساؤل عن «القصف من كندا». وسمعنا في نيويورك السناتور تشاك شومن يمتدح في تظاهرة مؤيدة للحرب على غزة الأساليب الإنسانية لإسرائيل، مشيراً إلى أنها وجهت رسائل قصيرة عبر الخليوي تحض فيها السكان على مغادرة منازلهم قبل قصفها وتساءل «أي دولة أخرى في العالم تفعل ذلك؟» وسمعنا حاكم نيويورك ديفيد باترسون يتحدث عن العداء للسامية الذي تلا بدء الحرب، وذكر تحديداً حادثة ضرب مراهقة في فرنسا وقال: «هذا النوع من الغضب والكراهية ينتشر كالمرض». لكن الكراهية كانت موجودة بكثرة في التظاهرة إذ رفع رجل لافتة كتب عليها: «الإسلام طائفة موت» وشبّه متظاهرون سكان غزة بـ «سرطان يجب استئصاله»، وبرر أحدهم وحشية الحرب بقوله إن أهالي غزة «يواجهون غضب الله».

لكن هذه الحرب الإعلامية لم تجر في الغرب من دون اختراقات كبيرة أحياناً. فمنع المراسلين الأجانب من دخول غزة لم يحل دون انتشار صور الفظائع التي ترتكبها إسرائيل وذلك لوجود مئات المراسلين المقيمين في غزة ممن يعملون مع فضائيات عربية وخصوصاً «العربية» و«الجزيرة» ومثلهم من العاملين مع تلفزيونات أجنبية ولا سيما منها الـ «بي بي سي» ومحطات أوروبية خاصة. وساهم وجود هؤلاء في كشف جانب آخر من الحقيقة. فقد وضع الجيش الإسرائيلي مثلاً على «اليوتيوب» شريط فيديو صُوّر من الجو لما قاله إنه ضربة «عالية الدقة» بالصواريخ لمجموعة من «حماس» تحمّل صواريخ غراد في شاحنة

لحماس. وقالت الـ «بي بي سي» إنه قبل أن تتحقق من الخبر في اليوم التالي كان 260 ألف شخص شاهدوه في بريطانيا. ولكن تبين أن القصة مختلفة. أحمد سنّور (55 سنة) هو صاحب الشاحنة الصغيرة وهو يمتلك معملاً صغيراً وكان العمال ينقلون اسطوانات الأوكسجين من المعمل إلى الشاحنة. وقد قصفت إسرائيل الشاحنة وقتلت ثمانية عمال بينهم ابن سنّور ودمرت المعمل والمبنى المجاور.

وساهمت وحشية الضربات الإسرائيلية واستهدافها مراكز إنسانية وخصوصاً مدارس «الأونروا» التي لجأ إليها أهالي غزة وبعض المستشفيات في فرض عرض مشاهد لها وللاحتجاجات عليها في أنحاء العالم. ولا شك في أن هذا لم يعجب الفرق الإسرائيلية المكلفة مراقبة وسائل الإعلام أينما كان مما انعكس انتقادات لهذه الوسيلة أو تلك بحجة عدم التوازن في التغطية. التوازن بالنسبة إلى إسرائيل هو في أقصى حد إعطاء ما يجري في غزة المساحة نفسها التي تعطى لسقوط صواريخ في سديروت. ولاحظ مراقبون إعلاميون أن الكثير من وسائل الإعلام الغربية اتبعت هذا النوع من «التوازن».

هل نجحت إسرائيل في حربها الإعلامية؟ هل خسرت؟ الجدل مستمر في العالم وخصوصاً في الغرب الذي هو هدف هذه الدعاية في الدرجة الأولى.

البعض يجزم أنها ربحت والبعض الآخر يجزم بأنها خسرت. ولكن من يستطيع أن يحسم الأمر؟ لا الربح الكامل واضح ولا الخسارة الكاملة واضحة. المقاييس تختلف باختلاف التوقعات. الأكيد أن ثمة

آلة دعائية إعلامية ضخمة لا تتحرك إسرائيل عسكرياً من دونها والأكيد أن إسرائيل تفهم جيداً كيف يعمل الإعلام الغربي وتعرف كيف تستغل نقاط ضعفه وانحيازه. وأياً يكن معدّل نجاحها أو خسارتها في هذه الحرب فإنها لا تزال قادرة على ضمان تفوق الرواية الإسرائيلية على الرواية الفلسطينية في الغرب بصرف النظر عن نسبة الاختلاق والتضليل والتحريف فيها.

العدوان على غزة
كشف المستور في الإعلام العربي

كشف التعاطي الإعلامي الغربي، والأمريكي على وجه الخصوص مع المجازر التي ارتكبتها الآلة العسكرية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في قطاع غزة، مدى الفشل الإعلامي العربي خارج نطاق القطر العربي، في التعامل مع الغرب، وتوصيل حقيقة الأوضاع والمجازر التي ترتكبها تل أبيب كل يوم في حق الفلسطينيين. في المقابل استغلت إسرائيل آلتها الإعلامية الصهيونية في الغرب، لنقل الأكاذيب والافتراءات، وروج لها الإعلام الصهيوني بشكل جيد، لحد أصبحت فيه هي الضحية والفلسطينيون هم المتوحشون. وعلى ضوء هذه التطورات الخطيرة، قامت «النبأ» بفتح ملف الإعلام الصهيوني في الغرب، وكيف يخدم الأهداف والأطماع العسكرية الإسرائيلية، في الوقت الذي تتنافس فيه الفضائيات والتلفزيونات العربية حول العروض الحصرية للبرامج والأفلام الترفيهية، ومباريات كرة القدم.

فقد عملت الدعاية الصهيونية على خطين متوازيين موجهة إعلامها إلى الداخل والخارج، فواصلت التعبئة من جهة لمحاولة توحيد البنيان

اليهودي على أرض فلسطين وتوطيد دعائمه في إطار الكيان الصهيوني وأطلقت حملة لمحاربة الاندماج اليهودي في الخارج والعمل على استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين والمحافظة على ارتباط اليهود بمؤسساتهم في العالم بشبكة اتصال متينة مع إسرائيل.

ونجح الإعلام الصهيوني في أوساط الغرب، وإلى حدٍّ كبير في تشويه الحقائق التاريخية والوقائع السياسية، بل إنه استطاع إخفاء مشاهد المذابح التي ارتكبتها العصابات الصهيونية منذ.. كفر قاسم ودير ياسين وقبية ونحالين وغيرها مستفيداً في ذلك من ضعف الإعلام العربي وهشاشته، وأصبح الغرب يرى ما يحدث على أرض فلسطين من خلال المنظور الصهيوني، فترسخت اعتقادات في الرأي العام الغربي مفادها أن إسرائيل بلد صغير يحاول العرب المتوحشون التهامه، وانتشرت في وسائل الإعلام الغربية المختلفة صورة البداوة المتخلفة للعربي الواقف بين الجمل والخيمة الذي لا يرى أفقاً أمامه أبعد من كثبان الصحراء. كما أن مساحة التدفق الإعلامي الصهيوني متعدد الأشكال اتسعت في معظم أنحاء العالم، وفي فترة قياسية وأصبح عدد كبير من دور النشر والتوزيع ومحطات الإذاعة والتلفزيون والمسارح وشركات الإنتاج السينمائي، وأعداد أكبر من الوسائل الإعلامية الغربية خاضعة للنفوذ الصهيوني عن طريق عمل المحررين والمؤلفين والكتاب فيها أو بالإنفاق المالي المباشر..

وكان التخطيط لهذه الوسائل يجري في تل أبيب على يد علماء وخبراء في مجال السياسة وعلم النفس السياسي. ويعتمد هذا الإعلام

حتى الآن على مختلف المداخل مهما بدت متواضعة وبسيطة بهدف الترويج للموقف الصهيوني، وتوسيع نطاقه لخدمة الأغراض السياسية الصهيونية وطمس الصوت الآخر.

الإرهاب الإعلامي اليهودي

وتكشفت قضية خطيرة تتمثل في الإرهاب الإعلامي الإسرائيلي مما دفع الكتاب السياسيين الأمريكيين إلى التصريح علناً بأن ذلك كان السبب الرئيسي لما حدث في 11 سبتمبر كنتيجة حتمية للدعم الأعمى، ونجد كاتباً مثل ديفيد ديوك يقول: اسمحوا لي أن أقول لكم وبكل صراحة: إن السبب الرئيسي الكامن وراء تنفيذ هذه العمليات الإرهابية ضدنا هو دعمنا المباشر للممارسات الإجرامية الإسرائيلية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن لدى اللوبي اليهودي في أمريكا نحو 70 من كتاب الأعمدة المشهورين على المستوى القومي، وهو يسيطر على عشرات من أجهزة الإعلام التي تخاطب المستويات السياسية والشعبية.. واستطاع اللوبي اليهودي أن يجعل معركة الإسرائيليين هي معركة الولايات المتحدة التي تقوم بذلك نيابة عنها مع أعدائها وهو ما يعد بمثابة خلق أعداء للولايات المتحدة هم أصلاً أعداء للصهيونية. وفي المقابل برزت سلبية المواجهة العربية.. مع التأثير الصهيوني في القرار السياسي الأمريكي عبر إعلام مستلب كلياً ومملوك للآلة الصهيونية، كان الإعلام العربي سلبياً وأدواته معدومة وهو بالتالي أسير للآلة الإعلامية الغربية ووسائلها، إضافة لانعدام الفعل السياسي المستقل عن الأرضية

الأمريكية وبالتالي عن الهيمنة الصهيونية، وقد أشار خبراء عرب كثر إلى أن الإعلام العربي:

- لا يمتلك رؤية سياسية أو برنامجاً أو خطة عامة لمواجهة التغلغل الصهيوني، حيث تصبح مقاومة التطبيع مجرد جزء من هذه الخطة.

- سيطر عليه الخطاب الإعلامي والثقافي والترفيهي من جهة، والتغلغل الصهيوني من جهة أخرى، ابتداء من خلق حالة من اللاانتماء إلى التحييد والتجهيل والإلهاء وصولاً إلى كسر الحواجز النفسية مع العدو الصهيوني.

- شيوع المصطلحات التضليلية على نمط الشرق الأوسط بدلاً من الأمة العربية، أو عرب إسرائيل، أو شعوب المنطقة، ومثل طرح قضايا جانبية كحوار الأديان أو تشويه الرموز الوطنية الذي يعد جزءاً من الاختراق الإعلامي.

وعلى ضوء ذلك فقد بات واضحاً أن الإعلام الصهيوني يلعب دوراً موازياً للدور العسكري الذي تضطلع به الدولة العبرية إن لم يكن أكثر فاعلية، وأشد خطورة، ويجري تسويق حجج رئيسية خاصة على الصعيد العربي، لمبررات قيام الكيان الصهيوني.. وفي مقابل تلك الاستراتيجية الإعلامية الصهيونية نجد أننا كعرب لا نملك ولو جزءاً يسيراً من استراتيجية مقابلة قادرة على مواجهة التغلغل الصهيوني في كل مجالاتنا بدءاً من السياسة مروراً بالاقتصاد، فالحياة الاجتماعية ثم التاريخ إلى آخر قائمة لا تنتهي.

اليهود وشبكات التلفزيون العالمية

حين يذكر التلفزيون، تبرز شبكات التلفزيون الأمريكية كأقوى شبكات للتلفزيون في العالم، والتي يسيطر عليها اليهود سيطرة شبه تامة؛ حيث تنتشر في الولايات المتحدة ما بين 700 إلى 1100 شبكة بث تلفزيوني. وتعتبر الشبكات الثلاث المسماة A.B.C. وC.B.S. وN.B.S. أشهر شبكات البث التلفزيوني في العالم، وجميعها تحت النفوذ اليهودي الصهيوني.

فشبكة A.B.C. يسيطر عليها اليهود من خلال رئيسها اليهودي ليونارد جونسون.

وشبكة تلفزيون C.B.S. يسيطر عليها اليهود من خلال رئيسها اليهودي ومالكها ويليام بيلي.

وشبكة تلفزيون N.B.C. يسيطر عليها اليهود من خلال رئيسها اليهودي ألفرد سلفرمان.

ولكي ندرك مدى خطورة السيطرة الصهيونية على هذه الشبكات الثلاث، يكفي أن نشير أنها تعتبر الموجّه السياسي لأفكار ومواقف حوالي 250 مليوناً أمريكياً، بالإضافة إلى مئات الملايين الآخرين في أوروبا وكندا وأمريكا اللاتينية، بل وفي جميع أنحاء العالم.

كما تبرز السيطرة اليهودية على برامج التلفزيون الأمريكية من خلال العديد من البرامج، فعلى سبيل المثال قدمت شبكة N.B.C. في مطلع الستينيات، سلسلة من الحلقات الدينية عن شخصيات من العهد القديم،

كانت هذه الحلقات جزءاً من المخطط اليهودي لإقناع الرأي العام الأمريكي بأن اليهود يشتركون مع الأمريكيين في عقيدة واحدة، وبأن اليهود أبرياء من دم المسيح(عليه السلام)!!

كما قدمت شبكة A.B.C. برنامجاً عن جهاز المخابرات اليهودية «الموساد» على مدى أسابيع، وبمعدل أربعة أيام في الأسبوع، وكانت حلقات المسلسل تطفح بالمديح لليهود، وتظهرهم بمظاهر الشجاعة والذكاء والتضحية!!

وبتلك الأساليب الخبيثة نجحت الصهيونية في اكتساب عطف الرأي الأمريكي، وإعجابه في وقت واحد!!

كما حرصت شبكة A.B.C. في بداية الغزو الإسرائيلي للبنان على بث مقابلة مع عيزرا فايتسمان ـ وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق ـ، وكانت المقابلة حول كتابه: المعركة من أجل السلام، لتوحي للرأي العام الأمريكي بأن كل ما يقوم به الإسرائيليون هو من أجل السلام!! ولو أدى الأمر إلى غزو واحتلال أراضي دولة مجاورة وما يصاحب ذلك من تقتيل وتشريد لآلاف من الناس! وتمتد أذرع الأخطبوط الإعلامي الصهيوني إلى شبكات التلفزيون والإذاعة الفرنسية، حيث ظهر النفوذ اليهودي واضحاً في قيام التلفزيون الفرنسي ببث العديد من البرامج والمسلسلات التي تروّج للدعاية للصهيونية. فقد حرص التلفزيون الفرنسي عندما زار الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران الكيان الصهيوني، على استضافة الفرقة الموسيقية اليهودية المسماة بـ أوركسترا

أورشليم، كما قدّم فيلماً وثائقياً بعنوان إسرائيل.. لماذا؟. كما قدمت الإذاعة الفرنسية برنامجاً إذاعياً بعنوان صوت إسرائيل.

ومن الأفلام التلفزيونية التي عرضها التلفزيون الفرنسي فيلم عملية عنتيبى الذي يروي بطولات الجنود اليهود في عملية تحرير رهائن مطار عنتيبى في أوغندا. كما عرض فيلم القرصان الذي يُظهر العرب بصورة مشينة، في الوقت الذي يُظهر فيه اليهود بمظهر الأبطال!!

وامتدت سطوة الإعلام الصهيوني إلى التلفزيون الإيطالي، فقد عرض في 26/ 9/ 1982، فيلماً وثائقياً بعنوان: «قنبلة من أجل السلام»، وقد كان الهدف من عرض الفيلم هو بث الذعر من محاولة باكستان امتلاك قنبلة نووية، وقد تضمن الفيلم مقابلة مع مناحم بيجن أكد خلالها: أن اليهود لا يطيقون أن يمتلك عدوهم مثل هذا السلاح حتى ولو كان هذا العدو غير عربي!!

الإعلام الصحفي الصهيوني

أما في مجال الصحافة فقد كان مجالاً خصباً للإعلام الصهيوني ـ الإسرائيلي لبث سمومه ليصل لأكبر شريحة من الغرب، وأحكم اليهود قبضتهم على أشهر وأبرز الصحف الأوروبية والأمريكية.

ففي بريطانيا يسيطر اليهود على عشرات الصحف مثل التايمز، والصنداي تايمز، ومجلة صن ومجلة ستي ماجازين، وغيرها، وقد نُشِرَت إحصائية عام 1981م تشير إلى أن مجموع ما توزِّعه كل يوم 15 صحيفة بريطانية واقعة تحت السيطرة الصهيونية ـ في بريطانيا وخارجها ـ يبلغ حوالي 33 مليون نسخة.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية تقوم المطابع هناك يومياً بنشر نحو 1759 صحيفة يتلقفها 61 مليون أمريكي، بالإضافة إلى 668 صحيفة أسبوعية تصدر يوم الأحد، ويُشرِف على توزيع هذا العدد الهائل من الصحف حوالي 1700 شركة توزيع يسيطر اليهود سيطرة كاملة على نصفها، وسيطرة أقل على النصف الباقي.

وفيما يلي أسماء أشهر الكتاب الصحفيين الأمريكيين اليهود، والذين جندوا أقلامهم لخدمة إسرائيل وأطماعها في الدول العربية:

جورج ويل، «واشنطن بوست، نيوزويك، إن بي سي نيوز». ويليام سفير، «نيويورك تايمز». آي. أم. روزنتال، «نيويورك دايلي نيوز». سيث ليبسكي، «وول ستريت جورنال». توني سنو، «واشنطن تايمز، فوكس نيوز». لاورنس كودلاو، «ناشيونال ريفيو، سي إن بي سي». آلان ديرشوويتز، «وسطن هيرالد، واشنطن تايمز». جاكوب هايلبورن، «لوس أنجلس ـ تايمز». وإلى جانب تلك الأسماء البارزة هناك قائمة طويلة من أسماء الصحفيين اليهود الأمريكيين. وبالإضافة إلى ذلك هناك عدد من الإصدارات الأمريكية اليهودية أبرزها نيو ربابليك The New Republic، يملكها كل من: مارتين بيريتز، مايكل ستاينهاردت، روجي هرتوج. كومنتاري Commentary تملكها اللجنة اليهودية الأمريكية. يو أس نيوز آند وورلد ريبورت Us News and World Report، يملكها مورتيمر زوكرمان. نيويورك بوست الشهير روبرت The New york post، يملكها أيضاً روبرت مردوخ ويكلي ستاندار. وول ستريت جورنال Wall

Street Journal اسم الناشر: بيتر كان. وغيرها من الإصدارات الصحفية التي جعلت نفسها في خدمة إسرائيل، والترويج لأكاذيبها.

وفي فرنسا لا يزيد عدد الجالية اليهودية على 700 ألف شخص، ومع ذلك فإنهم يتمتعون بنفوذ كبير على الحياة السياسية والاقتصادية، وتلعب وسائل الإعلام التي تقع تحت سيطرتهم المباشرة أو غير المباشرة دوراً فعالاً في تكريس النفوذ الصهيوني في فرنسا.

كما أن هناك سيطرة صهيونية شبه مطلقة على وكالات الأنباء العالمية، مثل رويتر التي أسسها اليهودي جوليوس رويتر، والأسوشيتد برس التي تقع تحت سيطرة الصهيونية، ووكالة هافاس الفرنسية التي أسسها أحد اليهود وأصبحت الوكالة الرسمية لفرنسا.

سينما الإعلام الصهيوني

ومما لا شك فيه أن صناعة السينما أصبحت في السنوات الأخيرة أداة إعلامية مهمة للترويج لأهداف واتجاهات سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية معينة، ومن الوهلة الأولى أدرك الإعلام الصهيوني أهمية السينما، خاصة السينما الأمريكية، فبسط عليها أيضاً سيطرته، وبات يُسيطر على اليهود سيطرة تامة على شركات الإنتاج السينمائي، فشركة فوكس يمتلكها اليهودي ويليام فوكس، وشركة جولدين يمتلكها اليهودي صاموئيل جولدين، وشركة مترو يمتلكها اليهودي لويس ماير، وشركة إخوان وارنر يمتلكها اليهودي هارني وارنر وإخوانه، وشركة برامونت يمتلكها اليهودي هودكنسون.

جميع هذه الشركات اليهودية يُباع إنتاجها في العالم العربي والإسلامي، وتبرز فيها العنصرية اليهودية بشكل صارخ!! ومع ذلك تعرَض منذ سنين طويلة في بلاد العرب، وتمتلىء بها صالات العرض السينمائي والتلفزيوني!

وتشير بعض الإحصائيات إلى أن أكثر من 90٪ من مجموع العاملين في الحقل السينمائي الأمريكي، إنتاجاً، وإخراجاً، وتمثيلاً، وتصويراً، ومونتاجاً، هم من اليهود...

وإذ يصعب سرد أسماء جميع اليهود العاملين في حقل السينما العالمية، كذلك يصعب سرد أسماء جميع الممثلين من غير اليهود الذين ارتموا في أحضان الصهيونية، ولذا نكتفي بسرد بعض أسماء هؤلاء على سبيل المثال. فمنهم: روبرت دي نيرو، ستيف ماكوين، روبرت ريد فورد، هايدي لامار، فيكتور مايثور، شين كونري، جيمس بوند، روبيرت ميتشوم ورومي شنايدر... وعشرات غيرهم.

وفي بريطانيا يملك اللورد اليهودي لفونت 280 داراً للسينما، ويقوم بنفسه بمشاهدة أي فيلم قبل عرضه، وقد منع عرض فيلم عن «هتلر» من تمثيل «إليك جينيس» المؤيّد للصهيونية، بحجة أن الفيلم لم يكن عنيفاً ضد الهتلرية بالشكل الذي يُرضيه..!!

ويعتبر فيلم «الهدية» من أقذر الأفلام إساءة للمسلمين العرب، وهو من إنتاج اليهودي البريطاني روبرت جولد سميث. ويروي الفيلم قصة عدد من أمراء العرب الذين يصطحبون عشرات من حريمهم المحجبات

إلى باريس، حيث ينطلق الأمراء في بعشرة ملايينهم لاصطياد العاهرات... ومنهم بطلة الفيلم اليهودية، وفي نفس الوقت يغلقون أبواب غرف الجناح الضخم في الفندق على نسائهم الحريم، ولا يسمح لهن بالخروج من غرفهن. وحين يُخطىء خادم عجوز في قرع باب جناح الحريم، يغلقن الباب، ويهجمن على الخادم العجوز، ويجبرنه على ممارسة الفاحشة معهن جميعاً..!! ويجري كل ذلك وسط قهقهة المشاهدين الذين ينجح بينهم الخبث الصهيوني عبر هذا الفيلم وأمثاله، في تبشيع صورة المسلم العربي في فكره وعاطفته.

واليهود يعلمون أنَّ أغلب رواد السينما من صغار السن، أو من طبقة العمال الفقراء، لذا فإنهم يعمدون إلى إثارة غرائزهم، وإفساد أخلاقهم بما يقدمون لهم من أفلام الجنس والجريمة والسرقات والقتل. فهل يستفيق الإعلام العربي من غفوته الطويلة، ويترفع عن الصغائر، والمنافسة على الريادة، لكي يتسنى له الوصول إلى الغرب، وإقناعه بقضاياه المشروعة وحقوقه التاريخية، في مواجهة الآلة الإعلامية الصهيونية المروجة للأكاذيب المفضوحة.

مقالات عربية بنكهة إسرائيلية

في غمار العدوان الصهيوني على غزة، قالت الناطقة الرسمية باسم الجيش الصهيوني «أفيتال ليبوفيتش»: «إن وسائل الإعلام الجديدة وعالم التدوين يشكلان معارك جديدة في إطار الصراع حول كسب الرأي العام العالمي، وأن خوض هذه المعركة من الأهمية بمكان»، فيما وصفت

وزارة الحرب الإسرائيلية الإنترنت بأنه «منطقة حرب» في إشارة للمدونين والكتاب الصهاينة ببدء حملة تبييض الوجه الصهيوني ونشر كتابات عربية تؤيد وجهة النظر الإسرائيلية!

وسبق أن اتبعت الخارجية الإسرائيلية نفس الأسلوب خلال حرب جنوب لبنان عام 2006 بإبراز كتابات عربية منشورة في صحف عربية شهيرة مثل «الشرق الأوسط» و«الأهرام» و«الوطن» و«الرأي» الكويتين، مؤيدة لوجهة النظر الإسرائيلية على موقعها تحت عنوان «مقالات رأي لكتاب عرب»، تدين حزب الله، بيد أن الاستعدادات الدعائية في حرب غزة كانت مبكرة وأكثر كثافة بغرض التأثير على الرأي العام العربي والعالمي معاً سواء عبر الصحف أو المدونات أو موقع يوتيوب أو المواقع الاجتماعية خصوصاً «فيس بوك» و«تويتر».

واللافت أن الأقلام التي سبق أن هاجمت حزب الله ومحور الشر في يونيو 2006، هي نفسها بجانب كتاب جدد هي التي هاجمت حماس هذه المرة أيضاً ولكن بصورة أكثر عنفاً.

من أبرز المقالات التي احتفت الخارجية الإسرائيلية بنشرها مقال «مأساة غزة: أصابع إيران الخفية» «31 ديسمبر 2008» لتركي الحمد في صحيفة الشرق الأوسط، الذي يصف فيه صواريخ حماس بأنها «ألعاب نارية حماسية»، ويصف حزب الله وحماس، بأنها «لعب أراجوز» تحركهم إيران من وراء الستار، وقتما تشاء، وكيفما تشاء، وليذهب الفلسطينيون إلى الجحيم.

ومن أبرز ما يقوله الكاتب: «إن إسرائيل تتعرض للاستفزاز المتكرر من قبل حماس، حين ترشقها بالصواريخ بشكل شبه يومي، فما هو المتوقع من إسرائيل والحالة هذه، وهي الدولة التي قامت واستمرت في الحفاظ على وجودها بالقوة والحل العسكري؟.. إذا كانت إسرائيل قد أجرمت بحق الفلسطينيين، فإن حماس شريكتها في الجريمة، بل وتتحمل الوزر الأكبر،.. وما يجب لفت النظر إليه هنا هو الدور الإيراني في المأساة.. أحداث غزة الأخيرة، وقبلها أحداث لبنان عام 2006، لم تكن نتيجة فعل مقاومة وطنية من حزب الله أو حماس، بقدر ما كانت وسائل لإشغال إسرائيل، القوة الإقليمية الوحيدة المنافسة لإيران في المنطقة، كي تتفرغ إيران لبرنامجها النووي، وخططها الأخرى للهيمنة في المنطقة».

عليكم بالإرهابيين الفلسطينيين

ويحتفي الموقع الإسرائيلي بمقالات للكاتب الكويتي «عبد الله الهدلق» منشورة في صحيفتي «الرأي» و«الوطن» يوجه فيها السباب للفلسطينيين ويعتبر أرض فلسطين هي أرض الميعاد لإسرائيل(!)، فتحت عنوان (جزاء قيادات الغدر والخيانة) يقول «الهدلق» في مقال نشر في صحيفة الوطن الكويتية (21 كانون الأول/ ديسمبر 2008): «أيها الجيش الإسرائيلي عليكم بالإرهابيين الفلسطينيين المؤتمرين بأوامر الإرهاب البعثي الفارسي.. لاحقوا متمردي (حركة حماس) ومعتوهيها والحمقى من قادتها والمتهورين من زعمائها المتسترين بالدين

والمتاجرين به واسحقوهم وأبيدوهم ولقنوهم درساً لن ينسوه إلى الأبد كما لقنتم (حزب الله!) الإرهابي المهزوم عام (2006م) درساً قاسياً أثختنموهم، وخلصوا قطاع غزة من سطوة (حركة حماس!) الإرهابية».

ويضيف: «هل نسي الإرهابيون في (حركة حماس!) أو تناسوا ما لقيه أمثالهم من قبل في أيلول الأسود في العاصمة الأردنية (عمان) على أيدي جنود الملك الأردني حسين بن طلال(رحمه الله) عندما هرست وفرمت دبابات الحق الأردني أجساد الإرهابيين في مخيمات شتات اللاجئين في الأردن الذين حاولوا التمرد والغدر ونكران الجميل فكانت لهم السيوف بالمرصاد فحصدتهم واستأصلت شأفتهم وقطعت رؤوس الإرهاب التي أينعت وحان قطافها؟ هؤلاء هم الفلسطينيون أينما حلوا حل معهم الإرهاب والإفساد والقلاقل والفتن والغدر واللؤم ونكران الجميل».

ويستطرد: «هل يمكن لحكومة إرهابية مثل (حماس!) أن تقود شعباً أو تحقق تقدماً في مسيرة السلام؟ وهل يمكن لشعب لم يعرف إلا التشرد والضياع في بداية حياته، ثم التشدد والتطرف والإرهاب والقتل والهجمات الانتحارية وقذائف الكاتيوشا التي يطلقها بشكل يومي على المدنيين الأبرياء والنساء والأطفال في المدن الإسرائيلية في الجنوب المحاذي لقطاع غزة أن يشكل مجتمعاً مدنياً ونواة لـ (دولة فلسطينية!) حضارية وقابلة للاندماج في المجتمع الدولي؟ وهل يمكن لحركة إرهابية مثل (حماس) تأتمر بأمر زعماء الإرهاب البعثي والفارسي في

دمشق وطهران أن تحظى بثقة الإجماع العالمي للاعتراف بها وقبولها والوثوق بها»؟

ويقول الكاتب الكويتي إن: «الأرض المقدسة.. هي حق لبني إسرائيل قبل أن ينتشر فيها شتات مخيمات اللاجئين وقبل أن تنشأ حركة فتح والجهاد وحركة حماس الإرهابية، والأرض المقدسة هي أرض الميعاد التي بشرت بها التوراة، ويحق لدولة إسرائيل أن تحتفل بالذكرى الستين». ويضيف: «إسرائيل دولة ديمقراطية يتحداها الإرهابيون والمتطرفون، وتحيط بها أنظمة حكم شمولية وديكتاتورية ومتسلطة ومستبدة عليها أن تخجل من أنفسها وتنسحب بهدوء»، ثم يقول: «لقد نشأت دولة إسرائيل الحديثة لتدوم وتستمر.. وإن إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكتب الأرض المقدسة حقاً لبني إسرائيل دون غيرهم تتأكد في قوله تعالى: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ (سورة المائدة الآية: 2).

وتحت عنوان: (أين المفر؟) يتحدث نفس الكاتب الكويتي في مقال نشر في جريدة الرأي الكويتية (21 ديسمبر 2008) عن الإرهاب الإيراني ومساعي نظام طهران في الحصول على أسلحة نووية من جهة والإرهاب الذي تمارسه حركة حماس من خلال «إطلاق وابل من القذائف الصاروخية العبثية باتجاه عسقلان وسديروت» ويتساءل: «أين المفر أيها الإرهاب الفارسي، ويا إرهاب «حماس» و«الجهاد» بعد التهديد النهائي الإسرائيلي»؟!

الديمقراطية.. ميزة الإسرائيليين!

أيضاً احتفى موقع الخارجية الإسرائيلية بمقالات لكتاب عرب تمتدح الديمقراطية الإسرائيلية وبرنامج مركز بيريز للسلام الذي يقول معارضون إنه مركز لغسيل مخ الأطفال العرب الصغار وإقناعهم بأن إسرائيل تريد السلام، مثل مقال أنيس منصور بعنوان: «اختيار الطائر الوطني الإسرائيلي شكل من أشكال الديمقراطية» في صحيفة الأهرام (5 يونيو 2008) والذي يتطرق فيه الكاتب المصري المشهور إلى الاستفتاء الذي جرى في إسرائيل لاختيار الطائر الوطني الإسرائيلي والذي فاز فيه الهدهد.

حيث يقول «منصور» تعليقاً على ذلك: «نحن عادة نستل السكاكين والخناجر للهجوم على إسرائيل بتسخيف هذه الفكرة.. ولا نرى في عملية الاختيار هذه أي شكل من أشكال حرية التعبير أو الديمقراطية.. مثل هذه المواقف هي المسؤولة عن سوء فهم كل ما بيننا وبين خصومنا وأعدائنا.. فنحن لا نرى لهم أية ميزة.. ولا نحسب لهم أي حساب»؟.

أيضاً أعادت الخارجية الإسرائيلية نشر مقال نقلاً عن مجلة أكتوبر في 11 نوفمبر 2008 بعنوان: (في مركز بيريز.. الأولاد يصنعون السلام!) للكاتب المصري حسين سراج، يتحدث فيه عن انطباعاته من احتفالات مركز بيريز للسلام بعامه العاشر، يؤكد فيه أن «مركز بيريز للسلام.. يهدف إلى تعزيز الرؤية للسلام، وتعاون منطقة الشرق الأوسط للعمل

معاً من أجل السلام من خلال التنمية والتعاون الإقتصادي والاجتماعي والتفاعل على مستوى الشعوب لا الحكومات هي التي تصنع السلام الحقيقي».

ويقول إنه رغم الواقع الأليم الذي يشاهده أولاد وشباب اليوم من الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي من خلال وسائل الإعلام المختلفة، وفي كثير من الأحيان يلمسونه بأنفسهم من خلال القصف الإسرائيلي أو سقوط صواريخ القسام في محيطهم أو عند مرورهم بالحواجز والمعابر، إلا أنهم في مركز بيرس يؤمنون بأن الأمل في مستقبل أفضل تتبدل فيه العداوة والشك بالقدرة على رؤية إنسانية الآخر، لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق الأولاد والشباب».

«لذلك»، يضيف سراج، «يقوم مركز بيرس سنوياً بإطلاق برامج مشاريع تشمل الآلاف من الأولاد والشباب الفلسطينيين والإسرائيليين، وتمكنهم من مقابلة بعضهم البعض وتعرف الواحد على الآخر. هذه البرامج التي تقوم في أساسها على استخدام وسائل من عالم الرياضة والفن والتكنولوجيا، تجعل الأولاد والشباب يتعرفون على قيم التعايش والتفاهم المتبادل وتساعدهم على التغلب على المخاوف الأولية ليكتشفوا أنه في الجانب الآخر - سواء كان فلسطينياً أو إسرائيلياً - أولاد مثلهم».

أيضاً احتفت الخارجية الإسرائيلية بمقالات «طارق الحميد» رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط السعودية ومقالات «عبد الرحمن الراشد» التي ينتقدان فيها حماس وحزب الله وسوريا وإيران، ونشرت لهما عدة

مقالات في هذا السياق مثل مقال طارق الحميد (28 ديسمبر 2008) بعنوان (دماء غزة. . مشروع تجاري) الذي يحمل فيه حماس مسؤولية ما يحدث في قطاع غزة ويدعو العالم العربي إلى اتخاذ موقف حاسم يحمل حماس وإيران المسؤولية في معاناة الفلسطينيين.

ومقال (العرب يصوتون ضد حماس) لطارق الحميد (29 نوفمبر 2008) الذي يقول فيه: «إن العرب قرروا التصويت ضد عبث حماس، وإظهار موقف عربي يعكس الوعي بأهمية التوقيت والظرف الدولي».

ومن أبرز الكتاب الذين احتفى بهم الموقع الإسرائيلي أيضاً: «الياس بجاني» الأمين العام للمنسقية العامة للمؤسسات اللبنانية الكندية، وخليل علي حيدر وحمد الماجد وتركي الحمد.

يذكر أنه في سياق ذات الحرب الإعلامية والنفسية الإسرائيلية في الحرب، نقلت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية عن أولمرت رئيس الوزراء زعمه أن مسؤولين عرباً طالبوا باستئناف عمليات الاغتيال ضد قادة حماس في قطاع غزة قبل ساعات من انتهاء التهدئة، واعتبر مراقبون هذه الأنباء جزءاً من حرب نفسية تشنها إسرائيل ضد قادة حماس لإجبارهم على تقديم تنازلات بشأن اتفاقية التهدئة.

وقال إن أحد المسؤولين العرب طالب الإسرائيليين بتصفية قادة حماس وقال لهم بالحرف «اقطعوا رؤوسهم»، كما قالت صحيفة «هآرتس» الإسرائيلية إن رئيس الحكومة الإسرائيلية إيهود أولمرت رد على زعماء دول أجنبية اتصلوا به في الأيام الأخيرة للمطالبة بوقف

إطلاق النار في غزة إن «زعماء عرب يحثونني على عدم وقف العملية العسكرية والاستمرار في توجيه الضربات العسكرية ضد حماس».

وإبان عدوان 2006 على لبنان وقف العديد من الكُتاب العرب إلى جانب بعض القادة السياسيين بالهجوم السياسي والإعلامي على حزب الله متهمين إياه بالتهور، وإنه صاحب خطوات غير محسوبة، وبسبب مواقفه هذه خلق المبرر لعدوان تموز 2006.

ونشرت الخارجية الإسرائيلية مقالات لكتاب عرب تهاجم حزب الله مثل مقال (حسن نصر الله مجرم حرب) للكاتب السعودي يوسف ناصر السويدان في صحيفة السياسة الكويتية، وافتتاحية لرئيس تحرير الصحيفة أحمد الجار الله تحت عنوان (مضللون كذابون انتهى زمانهم) في إشارة إلى حزب الله، ومقال (عقلية الهزيمة) لحازم عبد الرحمن نقلاً عن صحيفة الأهرام المصرية والذي أطلق صاحبه النار على حسن نصر الله وخالد مشعل وجبهة العمل الأردنية وجماعة الإخوان المسلمين ومن سماهم التكفيريين في العراق.

قراءة عن بُعد

Riyad Nassar Library

«هل وقعت الحرب الإسرائيلية على غزة حقاً؟»
نقاش في الحالة الإعلامية الغربية

من حق المرء أن يتساءل وهو يتابع الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة في قنوات التلفزة الغربية: هل حقاً وقعت الحرب؟ الفيلسوف والمنظّر الفرنسي جون بودريار كان طرح السؤال عينه خلال حرب الخليج قبل سنوات. والسؤال قد يكون «كابوسياً» ومزعجاً وصادماً للوهلة الأولى، لكن مراجعة سريعة لما قصده بودريار، قد تساهم في تخفيف وطأته، كما قد تساهم في فهم الحالة الإعلامية الغربية الغريبة بما أصابها من شلل في نقل فظاعات الحرب في غزة، لتصبح بذلك «خارج التغطية»، تارة باسم الحياد والمهنية، وتارة بسبب الحملة الاستباقية الإسرائيلية لتقييد الإعلاميين والحدّ من حركتهم وعزلهم وحصرهم في ما توفره لهم من معلومات (بروباغندا)، وتارة أخرى بسبب المعهود من ضغوط اللوبي اليهودي، في كل الأحوال، ومن وجهة نظر بودريار، فإن عدم وقوع الحرب لا يعني عدم وقوع عدد كبير من الضحايا والدمار لدى الطرف الأضعف، بل يعني أن هذه الحرب ليست مثل الحروب التقليدية التي تجري بين جيشين: إنها حرب

افتراضية تتم على مستوى التكنولوجيا والصورة بدلاً من المواجهة المباشرة. حرب تتم بين طرفين غير متكافئين، بلا مفاجآت وتقريباً بلا ضحايا من الطرف الأقوى: كل شيء يسير وفق مسار مخطط مسبق، والنتيجة مقررة سلفاً، والباقي هو جزء من العرض. إنها مثل ألعاب الكومبيوتر وحرب النجوم، كل شيء يتم من بعد، عبر الأقمار الاصطناعية والرادارات والكومبيوتر والخرائط لا توجد أهداف واضحة للحرب، لذا تصبح مجرد استعراض مهول للقوة تستخدم فيه أحدث ما توصلت إليه المختبرات العسكرية من أسلحة فتاكة. أما الإعلام، فمحاصر وممنوع من تغطية الحرب، يُعدّ تقاريره بعيداً من أرض المعركة ومآسيها، وليس أمامه إلا ما يتاح له من صور مرت على مقصّ الرقيب.

أو ليس ما جرى في غزة؟ أهداف إسرائيلية مرتبكة للحرب بدأت بالتعهد بإسقاط حكم «حماس» والقضاء عليها، ثم وقف إطلاق الصواريخ، وخفتت قرب النهاية لتنتهي إلى وعد بتغيير الوضع القائم في القطاع، وافتعال اتفاق تهريب الأسلحة لتحقيق إنجاز.

ألم يكن هناك استخدام منفلت للأسلحة الفتاكة في غزة، من قنابل فوسفورية إلى قنابل «الدايم» إلى اليورانيوم المنضب؟ ألم تكن تقريباً حرباً بلا مواجهة ولا ضحايا إسرائيليين: فقط استعراض جوي للقوة أشعل سماء غزة بـ «ألعاب نارية» كما كان يحلو للمتطرفين الإسرائيليين أن يسموها وهم يشربون الأنخاب من على تلة تشرف على القطاع أُطلق عليها «تلة العار». أما الإعلاميون، فكانوا يتابعون من بعد، ومن على

التلة، القصف الإسرائيلي المتواصل والمنفلت، من دون أن يقدروا على الوقوف على حقيقة ما يجري أو رؤية وجه الضحية أو معاناة الناس أو تفاصيل المأساة هناك في الطرف الآخر؟ وأخيراً، ألم تكن النهاية معروفة سلفاً؟

هكذا، منذ البداية، حُرم الإعلام الغربي من دخول أرض المعركة، وكانت مصادره إما إسرائيلية أو غير مباشرة، فجاء نقل الوقائع «ملطفاً»، بل ألطف بكثير من حقيقة ما جرى. هذه الحال أوجدت تغطية إعلامية متفاوتة، خصوصاً بين الإعلام الغربي المصادَر، وبين الإعلام المحلي والعربي الموجود داخل غزة، مثل قنوات «الجزيرة» و«العربية» و«المنار» و«الأقصى»، وبالتالي أوجدت أكثر من «حقيقة» لنقلها إلى المشاهد. في هذه الأجواء، وفي غياب الصورة ـ الدليل على ما اقترف من فظاعات، يصبح السؤال مشروعاً: هل حقاً وقعت الحرب؟ والمقصود هنا الفظاعات.

لكن المنع الإسرائيلي لم يكن العلة الوحيدة بالنسبة إلى ضعف التغطية الإعلامية الغربية. ففي الحالة البريطانية مثلاً، سجلت وقائع تعكس في مجموعها وجه الإعلام الرسمي البريطاني، وتطرح أسئلة صعبة في صلب العملية الإعلامية عن معنى المهنية والحياد في أوقات الحرب، ومعنى مراعاة القوانين التي تنظم البث (مؤسسة «أوفكوم»).

فمن جهة، فتحت الأزمة التي أثارتها «هيئة الإذاعة البريطانية» (بي بي سي) زوبعة لم تهدأ بعد رفضها بث نداء إنساني لجمع التبرعات بهدف إغاثة المنكوبين في غزة، علماً أنها كانت بثت نداءات متشابهة

في حالات مماثلة سابقة. وعلى رغم الضغوط الشعبية المتمثلة في تلقي الإذاعة آلاف الاحتجاجات المكتوبة، والضغوط الرسمية (انتقادات من 120 نائباً بريطانياً ومن أعلى مرجع ديني في البلاد رئيس الكنيسة الإنغليكانية أسقف كانتربري روان وليامز)، رفضت الإذاعة التراجع، ما طرح تساؤلاً عن حقيقة موقفها وادعائها الحياد، ووجهت لها اتهامات بالرضوخ لضغط اللوبي اليهودي، علماً أن الشعب البريطاني هو من يموّل الإذاعة من خلال رخصة التلفزيون.

من جهة ثانية، وجهت انتقادات إلى التغطية الإعلامية لـ «حرب غير الحروب، كانت أولى ضحاياها، الحقيقة»، على حد قول مذيع نشرة الأخبار في «القناة الرابعة» البريطانية جون سنو الذي أعد فيلماً وثائقياً بعنوان «غزة كما لم تُرَ» عرض في إطار سلسلة «ديسباتشز» وتناول تجربة الإعلاميين الغربيين الذين عزلتهم إسرائيل عند حدود غزة. سنو طرح سؤالين في شريطه: لماذا لم يحتج الإعلاميون الغربيون على المنع الإسرائيلي ومعاملتهم بهذه الطريقة التي تتناقض مع قيمهم ومبادئهم الإعلامية؟ وهل يصح حظر بث صورة مروعة للقوانين التي تحظر مثل هذه الصور في ساعات الذروة تحسباً لخدش مشاعر المشاهدين والأطفال؟ بعد استطلاع رأي عدد من الإعلاميين، يجيب سنو على سؤاله بتساؤل: تُرى، لو كشف في وقت مبكر عن الفظاعات التي رآها الإعلاميون عندما دخلوا غزة بعد انتهاء الحرب، هل كانت حينها الضغوط الدولية على إسرائيل ستتصاعد لإنهاء الحرب مبكراً؟

كثيرون يتّفقون مع سنو في موقفه، ويدافعون عن حق بث الصورة

Riyad Nassar Library

كاملة، وثمة من يقول إن الحرب هي الجحيم، وإن نقل الوقائع يجب أن يتم من دون قيود أو حساسيات أو حسابات، كي يكون المشاهد هناك... مع الضحية في وسط المعركة، وكي لا تفقد الدروس والعبر معانيها. على أنه بين وعي المتلقي الحقيقي لحجم الحدث ومعانيه السياسية، وبين وعي المتلقي نفسه للعبة الإعلام وضوابطه ومعاييره وكواليسه وانفصاماته، تتولد مرارة خاصة لن تمر حتماً من دون تأثير كبير على طريقة تناول الإعلام للأحداث من الآن فصاعداً.

أكثر من عدو[1]

هل تنتهي الحروب فعلاً عندما تنتهي؟ وإلى أين يذهب كلّ هذا الدم المراق؟ مات الذين ماتوا، لكن ماذا حل بالذين اجتثّت أطرافهم وأحلامهم، وأولئك الذين رموهم بتلك القنابل التي تركت سمومها في الأجساد لتموت ببطء؟

الذين قتلوا وجرحوا لم تقتلهم وتجرحهم إسرائيل وحدها. ساند إسرائيل الانقسام الفلسطيني وتخاذل السلطات العربية وانقساماتها وعجز الأمم المتحدة وصمت الدول التي تنادي بالديموقراطية والحرية وحقوق الإنسان. منذ أكثر من ستين عاماً، يحاصَر المحاصَرون، ويشرد المشرَّدون، ويقتَل القتلى! للقضاء على عنصر واحد من حركة «حماس»، لا تتورع إسرائيل عن قتل عشرات المدنيين الفلسطينيين وعن تدمير أحياء بكاملها.

لا تعرف الدولة العبرية كيف تتخلّص من هذا الشعب المتمسك بإصرار بجذور أرضه. على مرأى من العالم كله، يجمع قادة إسرائيل شعباً كاملاً داخل سجن كبير. يسوّرون إقامته بالجدران العالية. يحرمونه

(1) عيسى مخلوف، السفير، 30/ 1/ 2009.

من الماء والكهرباء. يدفعونه نحو البطالة والعطش والجوع. يذلونه عند المعابر. يفعلون كل ما يحيل حياته يأساً عظيماً. ثم ينقضون عليه بأحدث الطائرات والدبابات ويقصفونه بحراً وبراً وجواً، بصورة هستيرية مروّعة.

نعرف أن إسرائيل لا تولي اهتماماً بحياة الفلسطينيين، لكن ألا تفكّر لحظة واحدة في مستقبل مواطنيها في العقود الآتية؟ ألا تخشى عليهم من ردود الأفعال ومن الغضب الكبير الآتي؟ الدولة التي لا تتردد في قتل الأطفال بالمئات ألا تخشى من ارتدادات القتل على أبنائها؟ من جهة ثانية، هل بإمكان الدول التي أمعنت بالأمس في قتل اليهود وإبادتهم، هل بإمكانها أن تغطّي إلى ما لا نهاية جريمة بجريمة أخرى؟ ألا تفكر تلك الدول بمصير إسرائيل نفسها إذا ما تغير يوماً مسار التاريخ وتغيّرت معه موازين القوى؟ وحتى لو لم يتغير شيء، ألا تنتبه إلى ما يمكن أن يسفر عنه الاستمرار في إذلال الآخر ورفض حقه في الوجود؟

أسلحة محرّمة دولياً!

استخدمت إسرائيل، في حربها ضدّ غزة، «أسلحة محرّمة دولياً!» لماذا، إذاً، تم تصنيع مثل هذه الأسلحة؟ ما الهدف من صناعتها؟ ولماذا يتم إرسالها إلى دولة تقتات خبزها اليومي من الحروب؟

أسلحة محرّمة دولياً ويجري استعمالها ضد أحياء سكنية هي من بين الأكثر اكتظاظاً في العالم! وحين يجتمع تجار الجثث والموت، ممثلو الدول الحضارية المتمدّنة، لا تعود المشكلة الأساسية تتمثل في الاحتلال، بل في وضع حدٍّ لتهريب الأسلحة إلى «حماس»!

موقف المثقفين

رد فعل المثقفين الغربيين، باستثناء بعض التحركات والتظاهرات والبيانات، لم يكن على المستوى المطلوب، خصوصاً في فرنسا، الصمت مريع لولا بعض الأصوات التي تجرأت وأدانت العدوان الإسرائيلي، وثمة أصوات أخرى طالبت بالتدخل الإنساني العاجل على الأقل، ومنها المفكر ريجيس دوبريه والممثلة كارول بوكيه. أما الأصوات التي حضرت في وسائل الإعلام الفرنسية فهي الأصوات نفسها دائماً ومنها بالأخص أصوات من سموا بالفلاسفة الجدد ومنهم أندريه غلوكسمان وبرنار هنري ليفي الذي سبق له، في افتتاحيته في مجلة «لوبوان» الفرنسية، أن اتهم الفلسطينيين بمقتل محمد الدرة مستنداً في كلامه إلى مصادر الجيش الإسرائيلي.

الفيلسوف الآخر، ألن فنكلكروت، الذي لم نسمع صوته كثيراً في الآونة الأخيرة، تقتصر مهمته على انتقاد كلّ من ينتقد إسرائيل، حتى لو كان المنتقدون إسرائيليين. ألم ينتقد الرئيس السابق للكنيست الإسرائيلي أبراهام بورغ معتبراً أنه «يتحدث عن إسرائيل كأحد أعدائها الأوروبين»، وذلك لأن بورغ وصف سياسة إسرائيل بالسياسة الاستعمارية وبأنها لا تحترم القوانين.

اللافت أن بعض الكتاب والمثقفين الغربيين والعرب كانوا يزايدون على أصوات بعض السياسيين والمثقفين الإسرائيليين أنفسهم في الدفاع عن حرب إسرائيل واعتبارها مجرد حرب ضد حماس. لكن فيما وقف

الإسرائيليون، في غالبيتهم، إلى جانب الجيش الإسرائيلي في حربه ضد غزة، طالعتنا أصوات أخرى قليلة، من داخل إسرائيل، تدعو إلى إيقاف العدوان. من هذه الأصوات المؤرخ الإسرائيلي توم سيجيف الذي اعتبر أن الهجوم ضد غزة لا يستدعي فقط الإدانة الأخلاقية، بل يتطلّب إعادة نظر شاملة في بعض المسائل التاريخية المهمة. ولاحظ أن المنطلقات التي تدفع إسرائيل دائماً إلى شن مثل هذه الحروب إنما تنطلق من معطيات خاطئة. يقول سيجيف: «إسرائيل تقصف الفلسطينيين لتلقّنهم أمثولة. نظرية الأمثولة هذه رافقت المشروع الصهيوني منذ البداية، حين اعتقدنا أننا نحن من يمثّل التقدم وعصر الأنوار، العقلانية المميّزة والأخلاق، بينما العرب ليسوا سوى شعب بدائي عنيف ويحتاج إلى تربية». ويضيف المؤرخ الإسرائيلي: «يقولون إن هدف الهجوم الأخير هو تصفية نظام حماس وإن معاناة المدنيين الفلسطينيين ستؤدي، بالضرورة، إلى وقوف هؤلاء ضد زعمائهم. غير أن هذه الفكرة كانت خاطئة.. كل حروب إسرائيل انطلقت من فرضية مفادها أننا لا نقدم على الحرب إلا لحماية أنفسنا، كأن قطاع غزة ليس محاصراً ذاك الحصار الذي دمر حياة جيل كامل من الفلسطينيين».

صوت آخر يأتينا من الضفة الأخرى هو صوت الكاتب الإسرائيلي يوري أفنيري الذي تدفعنا كلمته الموضوعية والجريئة التي نشرت أثناء الحرب إلى التوقف عند أبرز محطاتها. اعتبر أفنيري أن «إسرائيل، في حربها ضد غزة، أفادت من حربها ضد لبنان صيف 2006، أي أنها قررت أن تخوض حرباً بدون ضحايا وبدون المغامرة بحياة جندي واحد

من جنودها. وهذا يقضي باتباع منهج يقوم على استعمال القوة القصوى لجيشنا من أجل سحق كل شيء وقتل كل حركة. هذا التوجه لا يستهدف فقط مقاتلي الطرف الآخر، بل أيضاً كل إنسان يمكن أن يكون، بصورة افتراضية، حامل نوايا عدائية، حتى لو كان هذا الإنسان سائق سيارة إسعاف أو طبيباً ينقذ حياة الجرحى أو شخصاً يحمل مساعدات غذائية. الهدف هو تدمير كل مبنى يظن أنه قد يستعمل لاستهداف جنودنا حتى لو كان مدرسة تغص باللاجئين، بالمرضى أو الجرحى. الهدف هو أن تقصف وتلقي القنابل فوق الأحياء السكنية، فوق المباني والمساجد والمدارس وقوافل المساعدات الإنسانية، وحتى فوق الأنقاض التي دفن تحتها الجرحى».

في رصده للإعلام الإسرائيلي قال يوري أفنيري إن «هذا الإعلام خصص ساعات طويلة للحديث عن صاروخ قسام سقط على منزل في عسقلان تعرض فيه ثلاثة مواطنين لصدمة نفسية، بينما تناول بصورة عرضية الأربعين امرأة وطفلاً الذين ماتوا في مدرسة تابعة للأمم المتحدة والتي «تم استهدافنا منها» وهو زعم تأكد أنه كذب صارخ». وأبدى أفنيري استغرابه من «فقدان الشعور عند الإسرائيليين الذين ما عادوا يصدمون لرؤية طفل شوهته القذائف أو لأطفال تركوا لأيام قرب جثة والدتهم لأن الجيش منعهم من مغادرة منزلهم المدمر. يبدو أن أحداً ما عاد يهتم، لا الجنود ولا الناس ولا رجال الإعلام والسياسة ولا القادة. إنها حالة اغتراب أخلاقي يشكل إيهود باراك الممثل الأول والأساسي لها، حتى ولو كان بالإمكان أن تتفوق عليه تسيبي ليفني التي كانت تبتسم وهي تتحدث عن الأحداث المروّعة».

يضيف أفنيري: «كان يمكن أن نتفادى صواريخ القسام بدون اللجوء إلى حرب مدمرة لو أن حكومتنا أبدت استعدادها للحوار مع حماس بعد انتصارها في الانتخابات الفلسطينية. والأنفاق ما كانت حفرت تحت الحدود المصرية لو لم تفرض حكومتنا حصاراً قاتلاً على قطاع غزة. إن النتائج السلبية لهذه الحرب لم تظهر بعد ولن يتمكن من تحسسها إلا في السنوات الآتية. سيظهر في السنوات الآتية أيضاً كيف أن هذه الحرب لم تكن سوى ضرب من الجنون».

وختم الكاتب الإسرائيلي بالقول: «لقد طبعت إسرائيل في ضمائر العالم صورة مرعبة عن نفسها. مليارات البشر رأوا كيف أننا تصرفنا كوحش يسبح في الدماء. ولن يرى هؤلاء إسرائيل، لن يروها أبداً كدولة تبحث عن العدل والتقدم والسلام».

ما الذي يمكن إضافته، الآن، إلى ما قاله يوري أفنيري والذي لا يتجرأ على نشره الكثير من وسائل إعلام الدول المتقدمة؟

تأخر الرد

تأخر الرد العربي، تأخر الرد الغربي. طال أمد المجزرة، غزة لطخة سوداء جديدة تضاف إلى تاريخ الإنسانية. ردود الفعل الخجولة، المتباطئة، المترددة، المتخاذلة، للإسراع في العمل على إنقاذ شعب يموت، ردود الفعل هذه لا تطمئن ليس فقط بالنسبة إلى مستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي، بل أيضاً بالنسبة إلى مستقبل البشرية جمعاء.

باسم الحرب على الإرهاب أصبح الإرهاب حالة قائمة في أرجاء

العالم، وأصبح عبور المطارات والتنقل من مكان إلى آخر، حتى ولو كان في الجزر النائية، مسألة محفوفة بالمخاطر، لأن الدول التي تحارب الإرهاب، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية، ظنّت أن الاستعمال المفرط للقوة هو الذي يحسم الموقف لا السياسة القائمة على الحق والعدل!

قال الكاتب الأمريكي بول أوستير، إثر صدور رواية له بعنوان «وحيداً في الظلام»: «إن انتخاب باراك أوباما هو أفضل ما تمكن الأمريكيون من القيام به في السنوات الأخيرة، لكنني أخشى أن يكون الوقت قد تأخر لكي نواجه حالة الفوضى الشاملة».

حالة الفوضى الشاملة التي يجد فيها العالم نفسه اليوم تحتاج مواجهتها إلى فطنة وحكمة وتعقّل لا إلى مزيد من الهمجية والحروب والمجازر. وتحتاج إلى سياسيين يقرّبون بين الثقافات والجنسيات والشعوب، وبين التوجهات والألوان مهما اختلفت وتباينت، ومن أمثال هؤلاء مارتن لوثر كينغ الذي قال مرة: «ينبغي أن نتعلّم كيف نعيش كإخوة حتى لا نموت معاً كالمجانين».

الجلاد والضحية

في حزيران 1967، وفي اليوم الثاني بعد اندلاع الحرب، خرجت الجماهير في فرنسا وفي بعض عواصم أوروبا، بمظاهرات صاخبة ضد اعتداء الجمهورية العربية المصرية، على الشعب الإسرائيلي المستضعف، ونزل في الشارع ما تبقى على قيد الحياة من المعتقلات

Riyad Nassar Library

النازية، بلباس السجن المميز، مربطين بسلاسل. وصور كاريكاتورية للبكباشي عبد الناصر، كما كان يعرف، بلباسه العسكري وفي شنباته القصيرة ويده المرفوعة يحيي الجماهير الصاخبة مذكراً بهتلر، وصدرت كل الجرائد، بمانشيتات تقول إن السلاح الجوي هاجم إسرائيل لكنه أصيب بنكسة كبيرة، ولم تظهر حقيقة غدر واعتداء إسرائيل إلا بعد ستة أشهر.

عرفت الحقيقة بالتفاصيل وهي أن عبد الناصر لم يكن مصمماً على الهجوم على إسرائيل، وأن هذه الأخيرة كانت هي المعتدية.

كتب العديد من المقالات التي تقول بأن إسرائيل مهددة من جميع الدول العربية بالفناء، وهي تمثل الحضارة الغربية في الشرق وهي قلعة الديموقراطية بين شعوب متخلّفة يسودها الطغيان والأنظمة الدكتاتورية.

استغلّت إسرائيل هذه الكذبة، وروج لها الإعلام الغربي إلى درجة أن الشعب الأوروبي أضحى بأكثريته مؤيداً لإسرائيل، بغض النظر عما ترتكبه من اغتصاب واضح للأرض واضطهاد شعب كان يمكن أن يعيش بسلام لولا أنها طردته وشردته من أرضه.

إسرائيل عرفت نقطة الضعف عند الضمير الغربي فاستغلّته إلى أبعد الحدود، من تأييد سياسي، إلى الحصول على أحدث الأسلحة، إلى المساعدات المالية والاقتصادية.

وأضحت في كل مناسبة تشعر بأنها مهددة بالضعف، تتماهى مع موقع الضحية فتعطل أي هجوم يطالها، وتعطل المنطق وتلغي الحق.

أصبحت هنالك ثقافة الهولوكوست تبشر بها وتسعى إلى نشرها وتعميمها في كل المجالات الثقافية، الروايات، الأفلام، المسرحيات، الرسوم واللوحات، وأقيمت لها متاحف تعيد الذكرى أو تذكر بما حصل للشعب اليهودي من مآس.

إلى درجة أنها استطاعت أن تدخل ثقافة الهولوكوست في البرامج الدراسية فيتعلمها الأطفال منذ حداثة سنهم تحت عنوان plus jamais ça أي لا يتكرر ذلك أبداً.

اللافت للنظر أن الأوروبي تجاوب مع هذه الدعاية، لأن لا أحد يستطيع أن يصدها أو يتحداها وإلا تعرض لأكبر الإهانات والمضايقات المهنية، إذا ما لاحقه القضاء بتهمة اللاسامية.

الشعوب الغربية ساهمت في إنماء ودعم هذه الثقافة، تخفيفاً للشعور بالذنب وتكفيراً عن جرائمها المخالفة للقيم الجمهورية وللمبادىء التي ترعرعت عليها منذ اندلاع الثورة الفرنسية سنة 1792.

خطيئة مزدوجة:

أولاً: كل بلد ساهم في إشعال المحرقة. وارتكب بحق اليهود جريمة لا تغتفر. القصص والروايات كثيرة، التي تظهر جريمة الشعب الأوروبي بحق الإنسانية منذ حقبة الاستعمار وما بعده.

الثاني: ما حصل إبان الحرب العالمية الثانية اظهرت وحشية وهمجية لم يعهد الشعب الأوروبي أنهما موجودتان وكامنتان في نفسه رغم القيم الإنسانية التي كان يبشر ويعتبرها صداً منيعاً ضد البربرية.

من هذا المنطلق تغاضى الأوروبيون عن جرائم إسرائيل وعتّموا عليها في إعلانهم، كما لو كان في اللاوعي حاجة إلى طرف ثالث يدفع عنه فاتورة بربريتهم، فالشعب العربي والفلسطيني بصورة خاصة أصبحا ضرورة لتصحيح التاريخ وتخفيف الشعور بالذنب عندهم من الجرائم التي ارتكبتها. ولا نعجب أن أكثر حكومة تطرفاً تجاه الفلسطينيين هي التي ارتكبت أفظع الجرائم تجاه اليهود. فالحكومة الألمانية وجمهورها، تشعر من باب المسؤولية، بواجب دعم إسرائيل حتى ولو كان في الشر والظلم، فقط لأنها كانت في السابق تحتل موقع الجلاد.

إذاً إسرائيل تعرف كل ذلك، فموقع الضحية الذي تماهت به منذ تأسيسها، منذ ستين سنة، أضحى ضرورة وجودية كي تستدر عطف الدول الغربية، وتلزمها دفع جزء من التعويض على حساب الشعب الفلسطيني والعربي في آن واحد. وإذا تماهت إسرائيل بالجلاد والنازي، تطلب ذلك بالمقابل من الشعوب الغربية السكوت عنها، وتغطية جرائمها وإعادة الذكرى التي تؤلمهم عبر الإعلام الذي يسيطر عليه. فيكفي أن تكبس على الزر حتى تتحرّك الأفلام الوثائقية فتظهر أكوام الجثث البشرية والرافعات تنقلها إلى المقابر الجماعية أو صور الأطفال وهي تذهب إلى غرف النار غير مدركة ما سيحصل لها.

يعتبر موقع الضحية الذي تحتله إسرائيل من أهم الأسلحة التي تضمن لها خط الرجعة مهما ارتكبت من مجازر ومظالم، ولا سيما إذا كانت مدعومة بإعلام هائل وأرشيف جاهز تحركه حينما تشاء.

إذا قيّمنا ما حصل في غزة فماذا نستنتج؟

نستطيع القول إن شعب غزة حقق نصراً فقط بفضل مجهوده. فهو لم يكبد إسرائيل خسائر فادحة وإن استطاع أن يفشل مشروعها السياسي. لكن الأهم من كل ذلك هو أنه ظهر على شاشات الإعلام وعبر الجماهير التي نزلت إلى الشارع وقد احتل موقع الضحية. أي أنه استطاع بحكم صموده وصبره أن يتحمل جراحه ويظهر للعالم وجه إسرائيل المتخفي وراء ديموقراطية كاذبة. فانتزع من إسرائيل أهم سلاح عندها وتجسدت به الضحية بعد أن انتقل الإسرائيلي إلى موقع الجلاد.

هذا الموقع الجديد يشكل خطراً ويحدث ضرراً أكثر من الأسلحة الفتاكة. وقد ساهمت إسرائيل على غير علم من التداعيات في تأجيج نتائج الحرب لغير مصلحتها. وكنا نراها كلما صمد الشعب في غزة كلما ازدادت أضراراً وارتكبت مزيداً من الفظائع واستعملت أسلحة محظورة دولياً، ما جعل العالم أجمع يدينها.

التواطؤ على الجريمة مع الإعلام الغربي، عقد مبرم دون الإعلان عنه ما بين الغرب وإسرائيل. فبما أن وسائل الإعلام هذه سكتت عن الجرائم النازية طيلة سنوات فيجب أن تسكت بالمقابل على جرائم إسرائيل.

لكن الأحداث التي حصلت في غزة وصلت من الفظاعة إلى درجة، لم يعد بالإمكان السكوت عنها. فتطور الإعلام من فضائيات ومواقع إلكترونية، جعل الأرض مكشوفة، ولم يعد بالإمكان إخفاء حقائق الحرب وفظائعها. فصرخة أهالي غزة وصلت إلى أقصى المعمورة. الجميع كان يسمع بكاءهم وصراخ أطفالهم، يطلبون النجدة ولا أحد

يستطيع أن يفعل شيئاً، سوى أن يكون شاهد زور على جريمة ترتكب أمام عينيه.

إسرائيل كشفت أوراقها أمام العالم، وقطعت أوصال السلم وإمكانية التعايش مع العالمين العربي والإسلامي.

وتفوقها العسكري الذي أرادت أن تتباهى به وترفع من معنويات جنودها بعد إخفاقها في جنوب لبنان، انقلب عليها ما جعلها تفقد موضع الضحية الذي كانت تبتز به الغرب.

أكيد شعب غزة قد دفع الثمن غالياً ولكن دماء أطفالها ودموعهم واستنجادهم كان له وقع على نفوس العالم بأنه حقق واقعاً جديداً فبتنا نعرف الآن فعلاً «من هو الجلاد ومن هي الضحية».

المؤسسة الحاكمة ثبتت الهولوكوست كحقيقة قابلة للتكرار

استقبال الإسرائيليين فظائع جيشهم في غزة امتداد لتنشئة صنعت صورة «العربي الخطر»

في الحياة (1 ـ 3 ـ 2009) كتب أنطوان شلحت: من الصعب أن نحصي القصص الفلسطينية الإنسانية، التي تضمنتها الحرب الإسرائيلية الأخيرة على غزة (27/ 12/ 2008 ـ 17/ 1/ 2009). غير أن قصة واحدة منها فقط احتلت صدارة المشهد الإعلامي الإسرائيلي في آخر أيام الحرب، وهي قصة الطبيب الفلسطيني عز الدين أبو العيش الذي سبق له أن عمل في المستشفيات الإسرائيلية، وكان في عداد المناهضين لسلطة «حماس»، وتعرّض منزله في غزة يوم 16 كانون الثاني (يناير) 2009 إلى القصف الإسرائيلي، ما أسفر عن مصرع ثلاث من بناته وابنة أخيه وإصابة ثلاث من بناته الأخريات بجراح بالغة، وفي واقع الأمر، احتلت هذه القصة صدارة المشهد الإعلامي في إسرائيل بسبب العلاقات الوثيقة التي كانت تربط هذا الطبيب بمجموعة من الصحافيين الإسرائيليين.

وفي سياق ذلك، اعتبر أحد هؤلاء الصحافيين، وهو بوعاز غاؤون، أن ما حلّ بعائلة أبو العيش يعتبر، من ناحيته، «صورة الخسارة» التي منيت بها إسرائيل مع انتهاء «عملية الرصاص المسبوك» (صحيفة «معاريف»، 18/ 1/ 2009).

ورأى الكاتب الإسرائيلي إيال ميغد، الذي عادة ما كان يتبنى مواقف يمينية متطرفة في الآونة الأخيرة، أن محاولة امرأة إسرائيلية من مدينة هرتسيليا أن تتهم أبو العيش، في أثناء لقائها به في ردهة أحد المستشفيات الإسرائيلية حيث كانت بناته الثلاث يخضعن للمعالجة، بالمسؤولية عن المصيبة التي نزلت بعائلته «تثير الخزي والعار». وعلى رغم عقد إحدى قنوات التلفزة الإسرائيلية «لقاء مصالحة» بين الطرفين، فقد أصرّت المرأة الإسرائيلية على أن تبرّر فعلة الجيش الإسرائيلي. وكتب ميغد في هذا الشأن يقول: «إن المأساة المروعة لهذا الطبيب الفلسطيني لا تهمها من قريب ولا من بعيد، فهي عملياً لا تراه بتاتاً. . . بكلمات أخرى في إمكاني القول إن هذه المرأة جسدت، في اللحظة الملائمة، ما لا نرغب في أن نقرّ به، وهو وجود جانب مخجل ومثير للقلق في سلوك المجتمع الإسرائيلي برمته، هو جانب الانغلاق الذي يفضي به إلى فقدان حسّه الإنساني الأساسي». (صحيفة «معاريف» 19/ 1/ 2009).

إن هذا الجانب لم يكن وليد الحرب الأخيرة على غزة، وإن كانت قد ساهمت في تفاقمه، وإنما يشكل عنصراً رئيساً في الثقافة الإسرائيلية العامة. وسبق أن صادفنا، عقب انتهاء «حرب لبنان الثانية» في صيف

2006، رؤى سياسية تنم عن هذه الخلاصة. ومنها، مثلاً، دعوة المعلق السياسي دانيئيل بن سيمون، الذي أصبح عقب الانتخابات الإسرائيلية العامة عضواً في الكنيست عن لائحة حزب العمل، إلى أن تخرج إسرائيل من شرنقة الأحادية، وأن تلتفت إلى محيطها الإقليمي. ومما كتبه في هذا الصدد:

«في السنوات الأخيرة، تعززت نزعتنا القسرية للتحادث مع أنفسنا حول التسوية مع العرب، كما لو أن النزاع الحقيقي في الشرق الأوسط هو بين اليمين واليسار (في إسرائيل).

ربما يكمن مصدر العدوانية تجاهنا في طبيعتنا الأنانية وفي عدم تعاملنا مع جيراننا، وفي عدم استعدادنا لرؤيتهم عن بعد متر واحد... كما لو أن العرب هوام لا يليق التحادث معهم».

وتابع: «بدلاً من الحديث مع أعدائنا، فإننا نتحدث فقط مع أصدقائنا، حتى لا نقول الأوصياء علينا، في الولايات المتحدة... تبنينا الإنكليزية لغة أم ونتعامل مع اللغة العربية كما لو أنها خطر وجودي. حتى الآن لم يثبت أن استعباد حياتنا وقيمنا ومستقبلنا لأمريكا انطوى على أي فائدة. ولم نكن عديمي الأمان بتاتاً كما نحن عليه الآن. وكجزء من يأسنا، فإننا نحيط أنفسنا بسور ونحوّل شعار الانبعاث القومي إلى غيتو محض ومحكم الإغلاق من كل ناحية.

إذا تفشى اليأس من الجيران ومن السلام، فمن شأن الإسرائيليين تسليم مقود الدولة إلى أيدي مهووسين خطرين مثل أفيغدور ليبرمان.

Riyad Nassar Library

«من أجل أوضاع جنونية يتوجب أن يكون في الحكم أشخاص مجانين»، هذا ما قاله أحد سكان كريات شمونه، وعكس بذلك المزاج العام الجديد وذكر ليبرمان كوصفة سحرية.

إذاً لم يُعد أولمرت الأمل عاجلاً وإذا لم يفاوض السوريين والفلسطينيين واللبنانيين، فمن شأن اليأس من الوضع أن يدفع الإسرائيليين نحو حلول متطرفة» (صحيفة «هآرتس» 15/ 8/ 2006).

تحليل نفساني ـ اجتماعي

على صلة بما تقدم، صدر عام 2007، عن «منشورات الكرمل» ـ القدس كتاب رائد في مجاله بعنوان «العيش مع النزاع، تحليل نفساني ـ اجتماعي للمجتمع اليهودي في إسرائيل»، من تأليف البروفسور دانيئيل بار ـ طال.

ويقدّم هذا الكتاب وصفاً علمياً منهجياً للأساس النفساني ـ الاجتماعي، الذي يقف النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، والإسرائيلي ـ العربي، عليه. ولا يدّعي المؤلف تحليل كل العوامل والمنظومات والسيرورات النفسانية الضالعة في النزاع، بل يركز على الأساسي منها، أي تلك التي تؤثر بصورة بالغة في إدراك الواقع، من جانب المجتمع اليهودي في إسرائيل، بقدر ما تؤثر في السلوك الجماعي لهذا المجتمع.

ولعل الإطار النفساني لهذا الكتاب هو إحدى نتائج كون مؤلفه باحثاً واختصاصياً نفسانياً ـ اجتماعياً ـ سياسياً، سبق له أن شغل منصب رئيس «الشركة العالمية لعلم النفس السياسي»، علاوة على أنه محاضر كبير في

جامعة تل أبيب. وتنهل أبحاثه، بقدر لافت، من المقاربة العقلية ـ الشعورية التي تعتبر البشر أعضاء في أطر اجتماعية. ونتيجة لذلك، فإنهم يتأثرون بهذه الأطر على نطاق واسع.

يتمحور الكتاب، الموزع على عشرة فصول ومقدمة وخاتمة، حول «الريبرتوار» النفساني ـ الاجتماعي المرتبط بالنزاع لدى اليهود الإسرائيليين، والذي تكوّن وتطور على خلفية النزاع المرير والمتواصل، كما تغذّى أيضاً من الذاكرة الجماعية للشعوب ذات الصلة به. وبحسب ما يؤكد المؤلف، فإن الذاكرة الجماعية للحياة في الدياسبورا (الشتات) وذاكرة المحرقة النازية (الهولوكوست) شكلتا وتشكلان عاملاً شديد التأثر في فهم دلالات النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني لدى الجانب اليهودي الإسرائيلي.

إن مفهوم بار ـ طال ينطلق أساساً، من اعتبار أن النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني يندرج في نطاق النزعات القاسية التي لا يمكن السيطرة عليها، أو الخارجة على إمكان التحكم بها أو ضبطها. ويرى أن هناك نموذجاً عاماً في وسعه تأطير السيرورات النفسانية ـ الاجتماعية التي تنميها مجتمعات خاضعة لنزاعات من هذا القبيل. وبالتزامن مع ذلك، هناك موضوعات عينية يتميز بها كل مجتمع من هذه المجتمعات على حدة. كما يرى أن كل المجتمعات الموجودة في غمرة نزاعات خارجة على نطاق التحكم بها تواجه تحديات مماثلة، ما يُلزمها بإيجاد بنية تحتية نفسانية ـ اجتماعية تخدم حاجات المجتمع في ظروف النزاع القاسية. وتشكل هذه البنية التحتية الأساس لتطور ثقافة النزاع ونموها،

لا ريبرتوار ذلك المجتمع فقط، ولا المؤشر الذي ينظر من خلاله إلى واقع النزاع.

يشتمل هذا النموذج العام على ثمانية موضوعات تشكل فحوى ثقافة النزاع، وهي: تكريس عدالة أهداف النزاع، تحقيق الأمن، إلغاء شرعية الخصم، التعظيم الذاتي الجماعي، المفهوم الذاتي كضحية، تنمية المشاعر الوطنية، الوحدة، والتطلع إلى السلام. إن هذه الموضوعات حيوية وضرورية إبان النزاع الخارج على إمكان التحكم به، لكونها تبني الأساس المعرفي (الأشبه بالأيديولوجيا) للروايات التي ينميها المجتمع. غير أنه في مقابل هذه الموضوعات، التي تعد كونية في النموذج العام، ثمة مضامين عينية تختص بكل مجتمع، وتشمل الأحداث (الوقائع) والأساطير والأبطال والتصاوير والمصطلحات والاستعارات ذات الصلة.

ويركز الكتاب على المضامين الخاصة بالمجتمع اليهودي الإسرائيلي، والتي نمت وتطورت في سياق النزاع الإسرائيلي ـ العربي، وبالأخص في إطار النزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، الذي يعتبر لُبّه. ومع أنه يؤكد أن هذه المضامين هيمنت على الخطاب العام وعلى نتاج الثقافة اليهودية الإسرائيلية في الفترة التي بلغ فيها النزاع ذروته، وهي الفترة التي استمرت في قراءة المؤلف الخاصة منذ أربعينات القرن العشرين الفائت حتى سبعيناته (تحديداً حتى زيارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات لإسرائيل عام 1977)، فإنه يشير إلى أن البنية التحتية النفسانية ـ الاجتماعية، التي أُنشئت في المجتمع اليهودي الإسرائيلي، تطورت على خلفية تجارب معاشة أبعد، زماناً ومكاناً، لا على خلفية تجارب

تلك الفترة فقط كما أنها تطورت على خلفية العادات والثقافة اليهودية القديمة. وهو يعتبر الهولوكوست التجربة الأكثر رهبة وفظاعة، التي تركت بصمات لا تمحى على كينونة المجتمع اليهودي الإسرائيلي.

لا يجوز، في عرف بار ـ طال، إدراك كنه السلوك الجماعي اليهودي ـ الإسرائيلي في خضم النزاع الإسرائيلي ـ العربي والنزاع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، من دون أن نأخذ في الاعتبار «الصدمة التي مرّ بها هذا المجتمع نتيجة الهولوكوست، ومن دون إدراك الدلالة التي يعزوها لها». وهي تعتبر، في المجمل العام، نموذجاً رمزياً لمصير الشعب اليهودي على تعاقب أجياله. غير أنه في الوقت نفسه يبدي تحفظه من جعل الهولوكوست قوة عليا تغذي سيرورات سلبية، ويذكر منها: استمرار النزاع، عقلية الحصار التي تزعم أن العالم كله ضد اليهود وإسرائيل، كراهية الغرباء، الانغلاق الذاتي.

وجرى تضمين هذه التجارب، على مدار أعوام طويلة، في محتويات الثقافة ومضامينها، وانتقلت من جيل إلى آخر، وتعززت بواسطة تجارب اليهود في الزمن الراهن، بداية في فلسطين ومن ثم في دولة إسرائيل. ولذا كان من الحتمي، والحال هذه، باعتباره استمراراً لعداء الشعوب الأخرى ـ الأغيار (الغوييم) ـ وحتى باعتباره استمراراً للوحش النازي. وقد نقلت هذه المحتويات، بصورة مركزة ومنهجية، من خلال كل مؤسسات المجتمع اليهودي الإسرائيلي وقنواته الإعلامية، إبان فترة النزاع الخارج على نطاق السيطرة.

الكتب والإعلام

غير أن بار ـ طال يرى أن الوضع في الوقت الحالي يختلف اختلافاً جوهرياً عما كان عليه خلال الأعوام التي بلغ النزاع خلالها ذروته، لكن على رغم ذلك ما زال الكثير من الذي يجري إكسابه لأبناء المجتمع اليهودي ينهل من نبع المحتويات الخاصة لما يسميه «روح النزاع». إنّ أدوات ذلك هي كتب التدريس والأدب العبري والمسرحيات والأفلام الإسرائيلية ووسائل الإعلام الجماهيرية وخطابات الزعماء والطقوس الرسمية وما شابه.

وهو يؤكد، علاوة على هذا، أن إسقاط الشرعية هو أحد العوامل النفسانية الأكثر أهمية للمقاربات والممارسات التي تزيد من حدّة النزاع وتؤججه، كما أنها تؤدي قسطاً من استمراره وتدفع إلى ارتكاب أعمال تشذ عن المعايير المألوفة حتى في خضم القتال، مثل المسّ بالمدنيين والعقوبات الجماعية... إلخ.

ويتمثل فحوى إسقاط الشرعية، في شكل عام، في خلع صور تنميطية ذات دلالة سلبية متطرفة على أبناء جماعة بشرية معينة بهدف نزع السمات الإنسانية عنها.

لقد انعكس إسقاط الشرعية عن العرب داخل المجتمع اليهودي الإسرائيلي في خطابات القادة، وفي التقارير الإخبارية والتحليلات التي قدمت وتقدم في وسائل الإعلام، وفي الأدب والمسرح والأفلام، وحتى في الكتب التدريسية. كما أن نزع الشرعية عن الفلسطينيين كان

واسعاً ورائجاً لدى المؤسسة الإسرائيلية حتى عام 1993. وحتى عندما حاول قسم كبير من المجتمع الإسرائيلي أن يدفع قدماً عملية السلام مع الفلسطينيين، وحاول من ثمّ التخلص من نزع الشرعية الممأسسة لدى هذا القسم، فإنّ جماعات المعارضة القوية في المجتمع واصلت اتباع نهج رفض شرعية الفلسطينيين. وفي نهاية الأمر عندما انهارت عملية السلام واندلعت انتفاضة الأقصى (في أيلول/ سبتمبر 2000) ظهرت نزعة إلغاء الشرعية مرة أخرى وبقوة أكبر في الخطاب الإسرائيلي العام.

يعيد المؤلف إلى الأذهان أن اليهود الذين أتوا إلى فلسطين، بالأساس من أوروبا، خلال الهجرات الصهيونية التي بدأت في القرن التاسع عشر، تعاملوا مع العرب الذين قطنوا في المنطقة من وجهة نظر مركزية عرقية جلية، وقد نظروا إليهم بصفتهم متخلفين، قذرين، أميين، يُحرضون بسهولة وعدوانيين. وقد راجت هذه المفاهيم قبل تصعيد النزاع القومي وشكلت الأساس لإلغاء الشرعية الذي ظهر بكل قوته مع تنامي النزاع الدامي. واستمرت الحال على هذا المنوال أيضاً بعد إقامة دولة إسرائيل. وعلى مدار عشرات الأعوام تركزت الجهود الخاصة في محاولات إلغاء شرعية منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست عام 1964 وأصبحت بمرور الوقت تمثل تطلعات الفلسطينيين في غالبيتهم.

وعلاوة على إلغاء شرعية منظمة التحرير الفلسطينية استمرت عملية إلغاء شرعية العرب عموماً والفلسطينيين خصوصاً. والتصاوير البارزة التي يتم إدراج العرب والفلسطينيين ضمنها، في نظر اليهود الإسرائيليين، هي أنهم أناس دونيون من ناحية ذهنية، أغبياء وبدائيون.

Riyad Nassar Library

ويُنظر إليهم حتى باعتبارهم كسالى فاقدي القدرة على القيام بمهماتهم على أتم وجه، إلى درجة تصنيف ما ينجزونه في إطار توصيف «العمل العربي»، وهو تصنيف يشير إلى ممارسة فاشلة مهملة وأصبح مصطلحاً شائعاً بين اليهود الإسرائيليين. ويعتبر العرب بعامة والفلسطينيون بخاصة غير أمينين، عنيفين، وقساة ومستخفين بحياة الإنسان. هذه المعتقدات رائجة تقريباً بين جميع فئات المجتمع اليهودي في إسرائيل، وتقف في مركز الأساس النفساني ـ الاجتماعي الذي يزين لهم طريق التكيّف للعيش مع النزاع العنيف.

وثمة شهادات مهمة على الريبرتوار النفساني ـ الاجتماعي للمجتمع اليهودي الإسرائيلي في مضامين الكتب المدرسية.

المدرسة هي مؤسسة يوجد إجماع راسخ وواسع على دورها كوكيل مركزي للتنشئة، إذ إن بواسطة الكتب التدريسية ومناهج التعليم وآراء المدرسين ينكشف الطلاب على قيم وإيديولوجيات وتقاليد رائجة في المجتمع. وتعكس الكتب التدريسية الإسرائيلية، عياناً بياناً، المعتقدات الاجتماعية الممأسسة، والروح الاجتماعية والقيم والأساطير والأهداف المهمة للمجتمع، والذي يكون بدوره معنياً بتمريرها إلى الأجيال المقبلة. ومن هنا، فإن الكتب التدريسية لا تنقل المعارف الموضوعية والمحايدة فقط وإنما تنقل أيضاً المعارف التي تخدم حاجات المجتمع، ويتم بواسطتها تكوين الواقع الاجتماعي للأجيال الجديدة. إن هذه الوظيفة تؤديها، في الأساس، كتب تدريس التاريخ، الجغرافيا، العلوم الاجتماعية، الموطن (المدنيات)، الأدب العبري والتوراة.

حتى التسعينات من القرن الماضي، على الأقل، كانت في إسرائيل، على غرار دول أخرى، رقابة صارمة على مضامين الكتب التدريسية، وقد خضعت أجيال كثيرة من طلبة المدارس لعملية تنشئة سارت في وجهة تعميق ضلوعهم في النزاع. وكانت الكتب التدريسية حافلة بالمضامين التي تلائم البنية التحتية النفسانية ـ الاجتماعية، التي تدعم استمرار النزاع. وحتى السبعينات كانت هذه العملية تحتل الحيز المركزي في جهاز التربية والتعليم الإسرائيلي، الذي رأى الواقفون على رأسه أن المدرسة هي مؤسسة تتحدّد وظيفتها الرئيسة في أن تلقن الجيل الشاب الرواية الوطنية الإسرائيلية وقيمها. إن هذه العملية متواصلة إلى الآن، لكن من دون المباشرة، ومن دون غسل الدماغ اللذين ميزا العقدين الأول والثاني من قيام إسرائيل.

كيف نكتب غزة أدبياً؟[1]

كنا ولا نزال نقرأ ماركيز وسواه من أدباء أمريكا اللاتينية، مبهورين بثراء العالم الذي يقدمونه، وبغرائبيته وسحره، وهو ما أطلق على تلك الكتابات مصطلح «الواقعية السحرية».

وفي قراءة متأنية لماركيز مثلاً، سنكتشف أن هذا السحر ليس ماركة أمريكية لاتينية كما كنا نظن. فهو أحد أهم مقومات البنية الاجتماعية في كل مكان وزمان. وما علينا إلا أن نتذكر الحكايات الشعبية العربية،

(1) يوسف ضمرة، الحياة.

Riyad Nassar Librar

والخرافات، والحضور الطاغي للأسطورة في حياتنا اليومية، لكي ندرك أن هذا السحر موجود بين أيدينا، لكننا لم نره ولم نلمسه. وحين حاول بعضنا رؤيته وتلمسه جوبه ببعض من متسلقي الحداثة الذين ارتدّوا إلى الذات والجسد، إثر موجة جديدة من الكتابة، وجدت تشجيعاً لها في العالم كله. ولكن لا نعني بذلك تهميشاً أو تقليلاً من شأن هذه القضايا والموضوعات والهواجس الأساسية، فيما لو تم تناولها في سياق اجتماعي وثقافي عام، بعيداً من الإثارة ولفت الأنظار الذي يلجأ الكثيرون إليه في هذه الأيام.

كان ما فعلته غزة في المذبحة الأخيرة، بكل حكاياتها الموضوعية، وناسها العاديين، أعظم من أي واقعية سحرية في أي أدب عالمي آخر. فنحن أمام وقائع لو كتبت بقليل من التكامل بين موضوعيتها والمخيال الإبداعي، لتمكن الأدب العربي من إعلاء شأنه عبر العالم الحر.

لكن الخوف كله الآن، هو أن نعود إلى اجترار الحكايات السير ذاتية، ومزيد من الوصف الخارجي للوقائع التي أصبحت تجد سوقاً رائجة. وهذا لا يعني أننا ندعو إلى تحييد أو إقصاء الموضوعات والقضايا الإنسانية كلها، لمصلحة الوقائع الغرائبية والفنتازية في خلال العدوان الصهيوني على غزة. إنما نطالب فقط بالالتفات إلى هذا الزلزال بكل ما رافقه من وقائع إنسانية يومية، لا تصلح فقط كموضوعات للكتابة، بل هي قادرة على تحرير اللغة الأدبية مما أصابها من نخبوية أخذت تلازمها مؤخراً، بحيث ساهمت ـ في درجات متفاوتة ـ في توسيع الهوة بين الكاتب والمتلقي.

ولا ننسى أننا كنا دائماً نتذرع بفقر المجتمعات العربية، خصوصاً في سياق الحديث عن الرواية، بصفتها ابنة المجتمع الصناعي الحديث، بعلاقات إنتاجه المتعددة، والمختلفة عن علاقات إنتاج المجتمعات القبلية والريفية البدائية. فالأدب نتاج المخيال بامتياز، وهذا صحيح تماماً. لكن ما لم نفهمه جيداً، هو أن هذا المخيال وحده لا يجر العربة، ولا بد له كي يصبح منتجاً، من الاشتباك بالواقع الموضوعي، وبكل مفردات هذا الواقع المتنوعة. وهو ما ينطبق على الضفة الأخرى للكتابة. فليس في مصر كلها شخص يدعى «أحمد عبد الجواد» الذي قرأناه في ثلاثية نجيب محفوظ، ولكن في مصر ملايين من أحمد عبد الجواد المحفوظي. تماماً كما قيل في الجندي الطيب شفيك: إنه السيد أي شخص. فالكتابة هنا، والمخيال تحديداً هو الذي يبني هذه الشخوص والوقائع والأحداث، في خلال تناول قضايا اجتماعية أو سياسية كبرى في الأدب. ولكن هذا المخيال يتكىء على منظومة اجتماعية ووقائع عامة أو فردية، لكي تساعده في الانطلاق إلى آفاق الصورة الجديدة، كانت مشكلة الكتابة عن المقاومة قبل عقود، تتمثل في إقصاء المخيال أو تهميشه، لمصلحة الواقعة أو الحكاية والمعلومة والخبر. وعلى رغم ثراء الكثير من هذه الوقائع والحكايات والمعلومات، إلا أن تقزيم المخيال الإبداعي أمامها جعل الكتابة فيها إعادة إنتاج لها بالكلمة، تماماً كما حدثت. وإذا كان هذا مقبولاً إلى حدٍّ ما قبل عقود عدة، فهو لم يعد كذلك الآن إثر سيادة الصورة وحيويتها

Riyad Nassar Library

وحرارتها إعلامياً، بحيث لا تستطيع الكتابة إعادة إنتاجها بكل تلك الحرارة والحيوية.

ولذلك، فإن موضوعاً مثل محرقة غزة، تتطلب الكتابة فيه انتباهاً جديداً إلى معنى الأدب ودوره وجوهره. فلا يصح أن ننسخ كتابياً ما حدث، بحيث تصبح الكتابة توثيقاً ورقياً أو أدبياً إن شئت. ولا يصح أن نظل صامتين أمام هذا الثراء الهائل، القادر على منح أدبنا العربي قدرة على اختراق جدران الكون وبواباته محكمة الإغلاق. ولكن ما يمكن أن يصح، هو إعادة كتابة هذه الوقائع والحكايات من زاوية جديدة غير تلك الإعلامية المشحونة بالعاطفة. أي أننا أمام تحدٍّ جديد الآن، ربما يتيح لنا فرصة تقويم بعض المفاهيم السابقة والراهنة، كمفهوم أدب المقاومة مثلاً، فنحن لسنا في حاجة إلى أدب شعاراتي أو منبري أو هجائي. ونحن لسنا في حاجة إلى فبركة حكايات ووقائع بطولية تنتمي إلى تفكير رغائبي. ولكننا في حاجة إلى تناول وقائع موضوعية في صورة جديدة مغايرة لما كانت عليه، لكي يتم التركيز على البعدين الأساسيين في الكتابة: المعرفي والجمالي.

سيكتب الكثير من القصائد التي ترثي الشهداء، والكثير من الكتابات التي تشيد بالنصر وتعلي من شأنه، والكثير من الكتابات التي تتوعد العدو الصهيوني. وهي كلها ستكون إعادة إنتاج لأفكار المتلقي البسيط، الذي سيجد نفسه فيها. ولكن الأدب ليس كذلك. بل هو محاولة للغوص في عوالم هذه النفس الجوانية، التي لا يتمكن صاحبها من اكتشافها. أي أن الأدب قادر على مساعدة الناس على معرفة أنفسهم

ومحيطهم وعالمهم وحياتهم، في شكل جمالي وفني مختلف عن الأشكال اليومية المتمثلة في المنزل والمدرسة والجامعة والقبيلة والخضوع لكثير من الأعراف التقليدية من دون مساءلة.

وضعتنا غزة أمام امتحان من نوع جديد، كنا نظن أننا انتهينا منه. خصوصاً بعد هذا الطوفان الكبير في الكتابات التي سلكت أثر الشعر العربي الجديد، حيث غياب التميز والبصمة الإبداعية المختلفة، نظراً إلى محاولة الكثيرين اقتفاء بعض من نجحوا في اختراق حاجز الصوت الشعري الذي ساد عقوداً عدة.

لدينا حصيلة هائلة من الوقائع والمعلومات والحكايات، ولدينا ما نحتاج من وقت لكي يتم تحويل هذه الوقائع والحكايات إلى موضوعات أدبية ـ روائية بالتحديد ـ، شريطة ألا ينجر الكاتب العربي إلى مشاعر الناس وعواطفهم ورغباتهم، وشريطة ألا يضع له هدفاً يتمثل في الحصول على أكبر عدد ممكن من القراء، لأن في ذلك إخضاعاً للأدب وعالمه إلى منطق السلعة والسوق.

علينا أن نجرد صورة الفلسطيني في غزة مما علق بها في الذاكرة العربية من أسطرة، لأننا نريد هذا الفلسطيني بشراً سوياً، يحب ويجوع ويضعف ويقاتل ويصمد وينهار. ولا نريد فلسطينياً ينتمي إلى ممالك علوية لا تمت إلى العالم الإنساني، لأننا بذلك نفقد هذا الإنسان معنى وجوده وقوته وتضحياته والظلم الذي كابده وتعرض له ولا يزال. ولأننا برفعنا إياه من دائرة الناس العاديين، نكون جردنا كل ما قام به من صبر وصمود ومواجهة من قيمته الإنسانية أيضاً.

Riyad Nassar Library

نريده إنساناً عادياً هذا الذي فقد عائلته وقاتل. نريده أن يبكي ويتألم كإنسان. ونريده أن يشعر بالفقد والخسارة، لأننا إن لم نفعل ذلك، سنطيح بعد ذلك كل ما يجترحه خيالنا من بطولات وأساطير وتضحيات هائلة.

الفهرس

الكتاب 5

إعلام يتحدّى التعتيم 9

جرائم حرب... بلا شهود 11

«رامتان»: محاولة لكسر التعتيم الإسرائيلي حول غزة 14

من «إسرائيل» إلى إيطاليا... أصوات خرقت الصمت 18

يوم إعلامي للتضامن مع غزة 21

سديروت حائط مبكى «إعلامي» 24

كل إعلام الدولة العبرية تجنّد في الحرب، لكن السحر سرعان ما انقلب على الساحر 26

غزة على الشاشات الأوروبية 33

انحياز الـ «بي بي سي» 37

التضليل في ادعاء «الحيادية»: الإعلام البريطاني في غزة مثالاً 40

إنذار إلى القناة الفرنسية الثانية بسبب غزة 45

المعركة مستمرة على جبهة الإعلام 47
حرب الإنترنت 51
«الرفاق الهاكرز» يساندون فلسطين على طريقتهم 53
مواجهات «الرصاص المسكوب» 57
حلف «الناتو» والهاكرز 60
فن التضليل والإقناع 63
حرب اللغة والمصطلحات 65
العدوان على غزة كشف المستور في الإعلام العربي 79
قراءة عن بُعد 99
«هل وقعت الحرب الإسرائيلية على غزة حقاً؟»
نقاش في الحالة الإعلامية الغربية 101
أكثر من عدو 106
المؤسسة الحاكمة ثبتت الهولوكوست كحقيقة قابلة للتكرار 118

صدر من السلسلة:

- الإجرام الإعلامي
- إعلام يخرق الصمت
- صحفية على خط النار
- إعلام القاعدة
- حرب الشائعات
- خبر عاجل

$5.00

ISBN 978-9953-76-344-6
9 789953 763446

ON OFF